النفائس
مجلة ادبية تاريخية فكاهية
تصدر في القدس (فلسطين)
مرة في الشهر
لصاحبها
خليل بيدس

النفائس

AN-NAFAIS
PROPRIETOR KHALIL BEDAS
JERUSALEM, PALESTINE

قيمة الاشتراك
٦٠ قرشاً مصرياً في البلاد العربية و٧٠ قرشاً او ١٤ شلناً او ٣ دولارات في الخارج
الاعلانات
تفاوض بشأنها الادارة

الجزء ١١ — القدس * تشرين الثاني سنة ١٩٢١ — السنة ٨

القدس

(اشهر حوادثها التاريخية)

وفي سنة ١١٦٢ توفي بلدوين الثالث ملك القدس ، وكان قد ذهب قبيل ذلك الى انطاكية فمرض فيها ولما اشتد مرضه امر بان ينقل الى طرابلس ثم الى بيروت وفيها مات ، فنقلت جثته الى القدس ودفن في كنيسة القيامة . واذ لم يكن له ولد يرثه قام بالامر بعده اخوه اماريك (١١٦٢ — ١١٧٣) ويسميه العرب اموري ، وكان اميراً عَلَى عسقلان ويافا . وفي حال توليه الملك شرع في حروب كثيرة في سوريا ومصر

وفي ذلك الزمان تولى العاضد لدين الله وهو آخر الخلفاء الفاطميين بالديار المصرية . وكانت هذه الدولة قد اخذت في التلاشي ، واستبد وزراؤها بالخلفاء ووقع الخلاف بينهم ، واهمه ما وقع بين شاور وزير العاضد وضرغام احد الوزراء ، وكان من نتيجته ان هرب شاور الى الشام ملتجئاً الى نور الدين ومستجيراً به ، وطلب منه ارسال العساكر معه الى مصر ليعود الى منصبه ويكون له في مقابلة ذلك ثلث دخل البلاد . وكان نور الدين يرغب في التحرش بالدولة الفاطمية ليشهر عليها الحرب ويستولي عَلَى مصر ، فجهز الجيوش وأرسلها بقيادة قائده المشهور اسد الدين شيركوه الكردي ، وارسل معه عدة امراء وفي جملتهم ابن اخيه (ابن اخي اسد الدين) صلاح الدين يوسف بن ايوب ، وسار شاور في صحبتهم . ولما وصلت هذه العساكر الى بلبيس من البلاد المصرية نشب القتال بينها وبين العساكر المصرية ، فانتصر اسد الدين وقتل ضرغام وأعيد شاور الى الوزارة . ولكنه نكث عهده لنور الدين وارسل الى الافرنج يستمدهم فسارعوا الى تلبية دعوته ونصرته ، والتحم القتال بعد ذلك بين اسد الدين شيركوه من جهة والمصريين وحلفائهم الافرنج من جهة اخرى ثلاثة

اشهر متوالية ، وتمّ الصلح اخيراً بين الفريقين عَلَى ان يعود شيركوه الى الشام فعاد . غير ان نور الدين لم يلبث ان جهز له جيشاً جديداً ، فاغار به على البلاد المصرية ودوّخها. ثم مات وقام صلاح الدين ابن اخيه مكانه في رئاسة الجيش والبلاد . وفي ايامه مات العاضد وانقرضت بموته الدولة الفاطمية في مصر وكانت مدتها نحو مئتين وسبعين سنة ، فاستولى صلاح الدين عَلَى البلاد وكان بها عاملاً لنور الدين ثم استطال عليه

وكان نور الدين يستفحل مُلكهُ مع الايام وقد خُطب له في الحرمين وفي اليمن ومصر وطبّق ذكره الارض بحسن سيرته وعدله . وكان قد دخل البلاد التي كانت في ايدي الصليبيين وعبث بها اكتساحاً وتخريباً . ثم شرع في التجهز لاخذ مصر من صلاح الدين ولكنه توفي في اثناء ذلك ، فبايع الامراء والمقدّمون واهلُ الدولة بدمشق ابنهُ الملك الصالح اسماعيل وهو ابن احدى عشرة سنة واطاعه الناس بالشام . واستقلّ صلاح الدين بمصر وخُطب له فيها وضُربت السكة باسمه

وكان سيف الدين غازي ابن اخي نور الدين اميراً في الموصل . فلما توفي نور الدين سار سيف الدين وملك جميع بلاد ما بين النهرين . واجتمع الصليبيون وحاصروا قلعة بانياس من اعمال دمشق ، فصالحتهم حكومةُ دمشق عَلَى مال تبعثه اليهم وتقررت المدنة . وبلغ ذلك صلاح الدين في مصر فأنكره واستعظمه ، وكتب الى الصالح ملك دمشق يقبّح ما ارتكبتهُ حكومتهُ ويعده بغزوة الصليبيين

وتوفي اماريك ملك القدس سنة ١١٧٥ (٥٧٠ ه) وعقبه في الملك ابنهُ بلدوين الرابع وكان مجذوماً . وفي عهده جاء صلاح الدين الى سوريا فاستولى عَلَى دمشق ، وكان اهلها قد كاتبوه في ذلك خوفاً عَلَى البلاد من الصليبيين ، لان الملك الصالح بن نور الدين كان طفلاً لا يقوى عَلَى النهوض باعباء الملك ، فلما قدم صلاح الدين فرّ الملك الصالح الى حلب ، وسار صلاح الدين في اثره فاستولى عَلَى حمص وحماة ثم زحف الى حلب فامتنعت عليه . ولكنه عاد بعد ذلك فاستولى عليها وأقطعها اخاه الملك العادل واستولى عَلَى اكثر بلاد ما بين النهرين . وكان سيف الدين صاحب الموصل والملك الصالح بن نور الدين قد ماتا ، فاستبدّ صلاحُ الدين بالسلطنة ودانت له الشام ومصر وكانت عاصمته دمشق . وقد نشبت بينه وبين الصليبيين معارك كثيرة في جهات شتى من فلسطين وسوريا انتصر في بعضها وانكسر في البعض الآخر

وكان بلدوين الرابع ملك القدس قد فقد بصره فجعل مقاليد الامور في يد وصيّهِ ريموند امير طرابلس . ثم تنازل عن المُلك (سنة ١١٨٤) لابن اخته سبيلا ، ولم يكن له من العمر سوى خمس

سنوات،فتولّى باسم بلدوين الخامس، ولكنه لم يلبث ان توفي (سنة ١١٨٦) ،وكان بلدوين الرابع قد توفي قبله، وتزوّجت سيبلا أمُّ بلدوين الخامس غي دي لوسيبان احد امراء الافرنج القادمين من اوربا، وكان سيّئ الاخلاق قبيح السيرة ولكنه كان جميل الصورة، فتوّجته سيبلا ملكاً عَلَى اورشليم، وقد ساء ذلك في عيون جميع العظماء والزعماء من الصليبيين، فنفر اكثرهم وخلعوا الطاعة واضمروا العداء، وكاتب بعضهم صلاح الدين سرًّا يستقدمونه لافتتاح البلاد، فزحف صلاح الدين الى فلسطين ونزل عَلَى طبريا وكانت من اهمّ مراكز البلاد، فجاء ملكُ القدس بجيشه للدفاع عن المدينة، والتقى الفريقان ونشبت بينهما عدة معارك، كانت المعركة الفاصلة والاخيرة منها معركة حِطّين الشهيرة (في٣ تموز سنة ١١٨٧) وكانت معركة هائلة استمرّ القتال فيها يومين كاملين، وقد دارت الدائرة فيها عَلَى الصليبيين فانقلبوا راجعين عَلَى الاعقاب يطلبون النجاة بعد ان سقط منهم نحو ثلاثين الفاً، ووقع الملك اسيراً مع رجال حاشيته ورؤساء جيشه واعيان بلاده في ايدي المسلمين، وقد قتل صلاح الدين من هؤلاء الزعماء نحو مئتين وثلاثين رجلاً، وأصبحت البلاد بعد ذلك بلا رؤساء يدبرونها، وانتشرت جيوش المسلمين فيها تستولي عَلَى المدن واحدة بعد اخرى وسار صلاح الدين من طبريا الى عكا فنازلها واعتصم الصليبيون الذين بها بالاسوار واشاروا بالاستئمان فامّنهم. ثم ملك قيسارية وحيفا ويافا وصيدا وبيروت، وارتد منها فزحف الى القدس وقد وصلها في ١٩ ايلول سنة ١١٨٧ (٥٨٣ ه) وضرب عليها الحصار، ولم يكن فيها سوى الملكة وبعض شراذم الجنود مع نحو مئة الف رجل كانوا قد التجأوا اليها. واذ لم تستطع الملكة الثبات، ولا سيما ان افكارها كانت مضطربة بسبب اسر زوجها، اخلدت الى طلب الامان فسلّمت بشروط معلومة وقع عليها الاتفاق بين الفريقين، وهي ان جميع الصليبيين يخرجون من المدينة ويرحلون بعيالهم واثقالهم وتكون لهم الحماية فيصلون آمنين الى سواحل سوريا او مصر، وان كلاً منهم يؤدّي فديةً عن نفسه، وقد استقرّ ان يزن الرجل منهم عشرة دنانير والمرأة خمسة والطفل من الذكور والاناث دينارين، فمَن أدّى ذلك الى اربعين يوماً نجا والاّ صار مملوكاً. ولكن صلاح الدين أظهر من علوّ الهمة والرحمة ما لا مزيد عليه لانه كان يرضى من الفقراء بما تيسّر عندهم، وقد اطلق سبيل ثلاثة آلاف رجل بلا فدية، ولما قابل الملكة اظهر من اللطف والمروءة ما لا يوصف وكان يعزّيها بكلامه وبدموعه معاً، ويوزع الصدقات عَلَى ارامل القتلى واولادهم، وأذن للقيمين عَلَى المستشفيات ان يظلوا في المدينة سنةً اخرى لمواصلة العناية بالمرضى والعجّز

من زوايا الذاكرة

(للسيد محمد رضا الشبيبي)

وناضرةٍ خفَّ فيها النسيمُ فخفَّ الى قصدِها مجملي
هواءٌ ارقُّ من العاطفاتِ وماءٌ الذُّ من السلسلِ
تذكرتُ عاطفةَ المغرَمينَ فجاورتُ منعطفَ الجدولِ
وآلمني مُجتَلَى وردةٍ تكادُ تذيب حشا المجتلي
وذابلةٍ من بنات الحقولِ ولو لا الظما قطُّ لم تذبلِ
أبخلُ الطبيعةِ أودى بها وحاشا الطبيعةَ لم تبخلِ
ستقطفُها بعد إهمالِها يدُ الموتِ كالولدِ المُهمل

* * *

حسدتُ الزهورَ لانَّ الزهورَ كالخوانِ جامعةٍ مُثلِ
ومما يُجدِّدُ ذكرى الهوى هوا بين اغصانها الميّلِ
فهذا يقول لذاك : اعتنق وذاك يُشيرُ لذا : قبّلِ
فما لبني جنسنا الأكرمين قد افترقوا كالمهى الجفّلِ
يُبيدُ القويُّ حياة الضعيفِ ويودي المسلّحُ بالاعزلِ
فأينَ ، وداؤكم الاختلافُ ، أطبّاءُ دائكم المعضلِ
فمرتفعونَ لأوج السماءِ وهاوونَ للدركِ الاسفلِ
وأجبنُ من ضافرٍ في الحياةِ وأضرى من الأسدِ المُشبلِ
ومظلمةٍ سادَ منها السكونُ بليلٍ بعيدِ المدى أليلِ
بصرتُ بها تحتَ جنح الظلامِ باشباحِ ضامرةٍ هزّلِ
رمت بهم لمهاوي الشقاءِ يدُ الزمنِ القلّبِ الحوّلِ
فهم يُنشدونَ نشيداً عليهِ ملامحُ حالهم المجملِ
فكم نظر الناس من تحتهم وهم ينظرونَ لنا من علِ

(اصحاب السلطة واهل المكانة العالية)

لباكون الفيلسوف الانكليزي الشهير (وهي احدى المقالات الشائقة التي عرّبها السيد محمد لطفي جمعه المحامي)

وإنَّا أناسٌ لا توسطَ بيننا
لنا الصدر دون العالمين او القبرُ

ان مَن ولي امراً كبيراً يكون عبداً ذليلاً لثلاثٍ: امته وصنعته وسمعته · فيطيع وليٌّ امره طاعة عمياء، ويردعهُ صيته عما تميل اليه نفسه، وتستغرق اعمالهُ كلَّ اوقاته · وايُّ رجلٍ يشتري بحريته قوةً، ويسعى لنيل الحول عَلَى غيره فيفقد سلطانه عَلَى نفسه ؟

وان احد الناس يجهد نفسه لينال سمعةً، — وما السمعة الاَّ أمُّ المتاعب · فقد يدفع حبها الرجلَ الى اقتراف الذنوب، فيصل الى المكانة السامية بعد ان ينال شرفه الاذى

والسبيل الى العلى غير ميسَّر · والدرب الى الصيت زلِقٌ لا تؤمَن عاقبة السير عليه · وان مَن تزلُّ قدمهُ فقد هوى، او عاد ذليلاً محسوراً · واذكر قول شيشرون «اذا أفل نجمُ سعدك، ووضعك سواد حظك، وأمسيتَ وضيعاً بعد ان كنتَ رفيعاً، — خليقٌ بك ان لا تعيش»

واذا شآء مَن حصل عَلَى السلطة والسطوة ان يتخلى عنهما لا يستطيع الى ذلك سبيلاً · فاذا استطاع ذلك قلَّت رغبته في التخلّي ولو شابه كرُّ الغداة ومرُّ العشيّ · ومثله كمثل العجوز من النسآء، فانها لا تفتأ تتبرَّج وتتزيَّن، كأنها تهزأُ بالدهر، والدهرُ منها هازئ

واذا تاقت نفوس ذوي الصيت والسمعة الى السعادة يوماً، فيكفيهم ان يسمعوا بها ممَّن يتطلب مكانتهم ويسعى في الحصول عَلَى ما لهم من السطوة والسلطان · لانه لا يحبّب الصيت للانسان سوى ان مئين من الناس يتمنون ولو بجدع الانف ان ينالوا مناله

ولو علم الناس بما يلاقيه اصحاب المكانة السامية من المتاعب، لاكتفوا بما لديهم · ولكن

لا يعرف الشوقَ الاَّ مَن يكابدهُ
ولا الصبابةَ الاَّ مَن يعانيها

وأحدُنا اول مَن يشعر بهمومه ومتاعبه، وآخرُ مَن يحسُّ بعيوبه ومثالبه

وقد لا يستطيع مَن يقوم بشأن الناس ان يقوم بشأن نفسه، فيكون أجهلَ الناس بحاله ويكون الناسُ اعرفَ به منه

وان المكانة السامية تمكّن صاحبها من صنع الخير وعمل الشر · وخيرُ ما ينجي من عمل الشر هو النية الصالحة وعدم القدرة عَلَى اتيانه · واما صنع الخير فهو أسمى المقاصد وخير ما تطمح اليه النفسُ الفاضلة · ومن كانت نيته صالحة فان له عند الله ثواباً وأجراً · اما الناس فلا يؤمنون الاَّ بما يرونه امامهم من الاعمال الصالحة · وليس في طاقة احد الناس ان يصنع ما ينويه من خير، الاَّ اذا كان قادراً ذا سطوة ونفوذ · ولم يكن لله في خلق

الانسان من غرض سوى ان يكون الانسان مخلوقاً خيراً ، يعمل الخير و يقابل الخير بالخير . وليس يهدأ قلب الرجل في صدره ، الاّ اذا صنع الخير او نواه

وكن اذا وُليتَ منصباً مقتدياً بمن سبقك اليه ممن كانوا مفلحين . ولا تنسَ امر مَن أفسد قبلك ، لان لك في امرهِ عبرة . واذا رأيتَ خللاً في مابين يديك من العمل فاجهد نفسك في اصلاحه ، ولا تعجب بنفسك ، ولا ترمِ مَن سبقك بالعجز والتقصير

ولا تعمل عملاً الاّ اذا كان النظام رائدك . ولا تكن متشبثاً في امورك . ولا تُخفِ امراً لا يخشى عَلَى عملك من افشائه

ولا تمكّن احداً من سلب حقوقك . ولا تدع غيرك ينال مما لك من النفوذ منالاً . وكن عليماً بشؤون مَن وُليتَ امورَهم ، وكن منهم بمثابة العقل المدبّر من الجسم المطيع

ولا تحجب نفسك عمن له شكوى يبثّها . واسمع ما يبلغك من النصح والارشاد . واعلم ان كل كلمة تطرق اذنك لها نفع في الحال او في المآل

وقد يجبر صاحب المنصب الرفيع عَلَى ذنوب يأتيها رغم انفه . منها المهلة في انجاز الاعمال ، والتدنّي الى الرشوة ، والشدة واللين . ولئلا يتمكن منك حب المهلة في اداء ما يجب ، لا تحجب عنك مَن له شكوى يبثها ، ولا تخلف ميعاداً ، ولا تبدأ بعمل قبل ان تفرغ مما قبله ، ولا تمزج امرين لا علاقة للواحد بالآخر ان استطعت الى ذلك سبيلاً

ولأجل ان تكون ذا عفة اربط يديك وايدي غيرك ممن يأتمرون بامرك برباط القناعة . ومُرْ نفسك ومُرْهم بان لا يقللوا من مقدار نفوسهم ليكثروا من قدر ثروتهم . وكن غليظاً شديداً عَلَى مَن يهبك هبةً لتعمل له عملاً . واذا كنتَ كاملاً عفيفاً فقد أمنت نفسك ومن يلوذ بك . ولا يرتدع مَن يحاول ان يرشوك الاّ اذا أظهرتَ له الكمال والعفة ، وأبيتَ عليه التمليق والاكرام

ولا تجعل لاحد سبيلاً يمكنه من اساءة الظن بك . فان الشك اول مراتب اليقين . ومن شكّ في امانتك لا يلبث ان يؤمن بخيانتك

واعلم ان مَن تناءى عن مشربه قد يحرّك نفوس اهل الشر والعدوان ، فيرتابون من امره . فاذا شئتَ ان تتحول عن مبدأ كنتَ به معروفاً ، فلا تدع الناس يقولون ما لا يعلمون ، ولا تخفِ عليهم من امرك شيئاً . ولا تقرّب اليك مَن هو اقلّ في المقدار ، فقد يظن اهل الشر انه واسطة في الشر وان المال يأتيك عَلَى يديه

واعلم ان الحدة والخشونة تولّدان الكراهية والبغضاء . اما الصرامة والجفاء فيولّدان الخوف والتجيل . وكن اذا شئت ان تلوم من يستحق اللوم مهيباً وقوراً ، ولا تكن قادحاً مهيناً . ولا تكن ليّناً فتُعصرَ ، فان اللين يورث الذل والهوان . ومَن يسرف في تبجيل الناس فقدأ ودع نفسَهُ في ايديهم اسيراً

وللشهرة تأثير في خلق الرجل. وكان احد الحكماء يقول: إنّ اكابر الرجال صناديق مقفلة مفاتيحها الارتقاء الى ذروة المجد. فاذا بلغ احدهم غايته، فُتح وبان ما فيه ان خيراً فخيرٌ وان شرًّا فشرٌ

وبلوغ ذروة المجد يصلح النفوس الخيّرة ويفسد نفوس اهل الشرّ. وانت ترى شبيه الشيء منجذباً اليه. فان كانت نفس الرجل كريمة جذبها الخير، وان كانت شريرة جذبت اليها الشرّ. وليس للفضيلة الكامنة في النفوس مكان سوى المجد والشرف. ولذا ترى النفوس الكريمة وهي قبل ان تصل الى ما تعلل به نفسها متقدة مشتعلة، فاذا بلغته اطمأنت وسكنت اليه كما يسكن الطفل الى صدر امه

واعلم ان سبيل المجد وعرٌ. فارتكن فيه الى مَن يعضدك حتى تصل الى غايتك، فتستطيع ان تقف آمناً شرّ السقوط. واذا جاء ذكر من سبقك فاذكره بالخير، فان في ذلك خيراً لك وله

واذا كان لك رفاق في عملك، فكن معهم رقيق الجانب، ليّن الخلق، حسن العشرة. ولا تأنف من ان تشاورهم في الامور، ولا تكن في كل حال مستقلاً برأيك. واذا كنتَ مع قوم في حديث لا دخل له بعملك، فاطرح العظمة جانباً وابدُ لهم كما يبدو الرجلُ الكريم

دهاء المرأة

[رواية]

كان للمستر جوي بكلرستون شهرة ذائعة بين جميع رجال الشحنة في اميركا حتى صارت الشركات التجارية الكبرى والحكومة نفسها تعتمده في اكثر المهام وتكل الى عهدته كل ما استعجم امره من الحوادث والمبهمات فتجد منه في كل مرة ما يزيدها ثقةً بكفايته واعتماداً عليه. وقد جعلته حكومة نيو يورك رئيساً لرجال الشحنة فيها وأباحت له في الوقت نفسه ان يشتغل لحسابه الخاص

وكان بكلرستون جميل الصورة دمث الاخلاق لطيف الذات لا يقلُّ ادباً وظرفاً عن ارقى متمدن من ارقى طبقات المجتمع البشري في هذا العصر

وفي اواخر سنة ١٩١٣ حينما كانت السياسة الدولية في اهمّ ادوارها وكانت الشغل الشاغل لوزارات جميع الدول وقد بثَّ الجواسيس السياسيون من كل امَّة في كل عاصمة من عواصم اوربا أُرسل بكلرستون — بطل هذه الرواية — الى بطرسبرج عاصمة الدولة الروسية ليقتفي آثار جواسيس الاميركان فيها ويجتهد في اكتشاف ما اذا كان بعضهم قد شخص الى روسيا ليبيع سر اختراع ارند المهندس الاميركي الحربي المشهور وهو طريقة لفجر الالغام على مدى بعيد بواسطة الاشعَّة. وقد عُهد اليه استطلاع غير ذلك من المهام مما سيأتي بيانه في سياق الرواية

فسافر بكلرستون. واذ رأى ان مهمته لا تنقضي الاّ في بضعة اشهر، وكان لديه متسع كبير من الوقت لاعمال اخرى مما يمكن أن تفوَّض اليه لكشف غوامضها، عزم على قبول كل مهمة تُعرَض عليه من الافراد والجماعات وأعلن في الجرائد المحلية انه في فندق انكلترا وانه يقابل هناك كل مَن اراد مقابلتَهُ من اصحاب الاعمال

لكنه لم يعش في الفندق. بل كان يقابل فيه مَن كان في حاجة اليه من اصحاب الاعمال. واتخذ لنفسه داراً فخمة في احسن احياء المدينة واخذ يعيش فيها بمنتهى

الترف . وكان اسمه في فندق انكلترا جوي بكلرستون ، وفي داره الخاصة اللورد كراوتن . وكان في الفندق رجل العمل والكد ، وفي داره وكذلك في المجتمعات العامة رجل الغنى الواسع والبذخ الكثير ، فكان يرتدي افخر الملابس ويعاشر أعلى طبقات الناس . ولم تمضِ مدة طويلة حتى حام حوله اجمل سيدات العاصمة الروسية وألطف غاداتها وكلٌّ منهنَّ تجهد في اغرائهِ بمحاسنها لتوقعه في اشراك حبها وتخضعه لهواها . غير ان اللورد كراوتن لم يُغلَب ولبث طليقًا حرًّا خاليًا من كل هوى . وقد زاد ذلك الحسانَ تقرُّبًا منه وتودُّدًا اليه واخذنَ يكثرن من دعوته الى حفلات الرقص والطرب ولكن على غير جدوى

وكان قبل وصول بكلرستون الى بطرسبرج ان حدث عدة حوادث خطيرة كانت على اعظم جانب من الاهمية في عالم السياسة . فقد وضعت الحرب البلقانية الثانية اوزارها . وقامت البانيا بايعاز من النمسا تحشد الرجال وتتأهب للقتال لتنال استقلالها . واستعرضت المانيا من عندها من الامراء لتختار واحدًا منهم لعرش البانيا . وشرعت حكومة الاستانة تظهر انحيازها التام الى المانيا والنمسا . وجاهرت روسيا بضرورة استقلال مكدونيا ليكون منها دولة جديدة في البلقان ، وكان من امر احد امرائها المدعو جامبولاط ، وكان مقيمًا في روسيا ، ان نهض للمطالبة بعرش مكدونيا وقد قال لبعض الاساقفة في روسيا — مهّدوا لي سبيل الوصول الى العرش المكدوني أجعلْ بلاد مكدونيا بامرها ارثوذكسية . فقال له الاسقف — ولكنك مسلم ايها الصديق ، فكيف تريد ان تتصدَّى لنشر الدين الارثوذكسي وهذه حالك ؟ قال — واي بأس من ذلك ؟ فبالمدافع والسياط نفعل ما نشاء . . —

وكان من امر امير آخر من امراء الكرج واسمه داود انه لم تُرَق له دعوى جامبولاط هذا فأخذ يتهدَّد بشق عصا الطاعة للحكومة اذا هي ساعدت جامبولاط على تسنم عرش مكدونيا ويتوعَّد بحمل بلاده — بلاد الكرج — على الاستقلال والانضمام الى المانيا والنمسا وايطاليا . . — ولكن ما كاد يشيع امر هذين الاميرين حتى قبضت حكومة بطرسبرج عليهما وحبستهما شهرًا ثم نفت كلًّا منهما الى بلده

وليس كل ما اشرنا اليه من هذه الامور الا توطئة لما نريد ذكره من حوادث « الوزير راسولوف » احد أبطال هذه الرواية وما كان له من العلاقة بالمستر جوي بكلرستون رئيس الشحنة

***

كان راسولوف احد كبرآء الدولة الروسية وقد تقلد المناصب العالية حتى بلغ رتبة الوزارة . وكانت حكومته قد ندبته ليكون على رأس لجنة الاحصاء العامة وطلبت منه بنوع خاص ان يضع التقارير الضافية عن حالة المناجم الروسية وما في البلاد من موارد الغنى الطبيعي العظيم

وكان قد تزوج في صباه ورُزق ابنةً كانت في بدء هذه الرواية قد بلغت سن الشباب . وقد توفيت والدتها واقترن الوزير بغادة انكليزية يقال لها المس مود كانت وصيفةً لابنته . ولم يرُق عمل الوزير في عيني ابنتهِ فهجرت منزله في الحال الى بيت خالٍ لها من كبار الاغنياء في العاصمة ولم تعد تودُّ ان ترى اباها او تطأ عتبة منزله

اما المس مود فكانت وهي وصيفة مثال اللطف ودماثة الاخلاق . ولكنها ما كادت تنتهي حفلة زفافها الى الوزير حتى انقلبت فجأةً ، فتغيرت فيها كل تلك الاخلاق واصبحت السيدة المستبدَّة العاتية واصبح كلامها لا يُنقَض وارادتها لا تخالَف ، وكان الوزير اول مَن سمع فأطاع من كل مَن كان في ذلك المنزل من الخدم والحشم

ورأت المس مود ان في بقاء الوصيفات والخدم في المنزل ما يؤلمها ، فطردتهم جميعًا . ولما اخذ الوزير يحاول اقناعها بوجوب ابقائهم في الخدمة اتقدت عيناها بنار الغضب وصاحت به قائلة — لا اريد ان يبقى في هذا المنزل مَن يعرفني او يجسر ان يذكّرني بهيئتهِ او اشارته بمقامي السابق عندك . وقد تبلغ الوقاحة ببعض هؤلاء الخدم ، ولا سيما الذين مضت في خدمتهم تلك السنون وأصبحوا موضع ثقتك ، ان يحاولوا ايغار صدرك عليَّ . وقد تُصغي انت لاقوالهم ، لانك سيّئ الظن ضعيف

الرأي فينشب بيننا الخصام وتسوء الحال . ولذلك فقد امرت بطردهم جميعاً واستبدالهم بآخرين يكونون طوع امري انا وقيد اشارتي

سمع راسولوف هذا الكلام وهو في اشدّ حالات الاستغراب والذعر ، وقد شخص بعينيه الى هذه الفتاة العجيبة التي كانت منذ ساعات معدودة خادمة لا شأن لها ، فأصبحت في مثل هذه السرعة كاللبوءة الضارية تكشّر له عن انيابها وتريد ان تنهشه نهشاً ، وهو لم يجن اثماً الاّ انه احبّها ، فرفعها من حالتها الدنيئة وجعلها مساويةً له في المقام والشرف .. غير ان هيامه بها كان قد اعمى بصيرته فأمسك عن الكلام وهو يمسح العرق البارد الذي كان يتصبب من جبهته . وقد أظهر بحركاته واشاراته انه غير مخالف لها في شيء . فلتطرد الخدم وتُجرِ في المنزل كل ما شاءت من التغيير والتبديل .. وظن ان العاصفة لا تلبث ان تسكن ، فتألفه مود ويألفها ويعيش الاثنان في منتهى الحب والوفاق

غير ان الامر لم يكن كما اراد لان مود لم تلبث ان عادت الى الكلام وكان غضبها يزداد فوراناً فقالت — ولقد عرفت كل شيء قبل ان رضيت بالاقتران بك ورأيت بفراستي انك ستذيقني من العذاب الواناً . وأراني الان اني قد أصبتُ كل الاصابة في ظني منك قبل عقد القران ان تخصني بمئة الف ريال من ثروتك تجعلها باسمي في بعض المصارف ولولا ذلك لحبستني في هذا السجن وعاملتني كما تُعامَل الإماء .. لقد اخطأ ظنك وطاش سهمك .. ولعلك لم تدرك حتى الان مقام المرأة عندنا في بلاد الانكليز ، فهي هناك ربة المنزل ورأس الاسرة ، وانت لن تقدر ان تنزع مني هذه السلطة وتحرمني هذا الحق .. انا لا أعترضك في شيء من اعمالك في هذه اللجنة الحمقاء التي انت رئيسها ، فلا تعترضني انت في غير ذلك مما يتعلق بالمنزل وبي .. كن كما تشاء ان تكون : جنرالاً او وزيراً ، ولكنك لستَ في نظري الاّ شيخاً هرماً ضعيفاً لم يبق فيك من المزايا الاّ حبُّ الانغماس في الملاذّ والشهوات .. أذكرْ كيف كنت تتودّد اليَّ وتحاول ان اقابلك بالمثل ، فأرمقك بنظري وأعطف عليك ، — الى ان رضيتُ اخيراً بك بعلاً بالرغم مما بيني وبينك من التفاوت العظيم في العمر . فهل ترضى غيري من الغادات بما رضيتُ به انا ؟ اما وقد رضيتُ بك وقُضي الامر فيجب ان تعرف انت حدّك وتقف عنده

سمع راسولوف كل هذا الخطاب ونفسهُ تتألم وفؤاده يتصدّع . ولكنه لم يندم على اقترانه بمود لانها كانت ابدع نساء عصرها جمالاً واحسنهنّ قدّاً واعتدالاً . فعزم على ان يعتصم بالصبر الجميل وهو يرجو من الايام ان تساعده فيتغلّب على مود اخيراً ويسحق كبرياءها ويفوز برضاها

وانقضت مقابلة الزوجين في ذلك اليوم على ما قدمنا ، فدخلت مود الى مخدعها وانصرف راسولوف لشأنه . ومرّت الايام والزوجان لا يكادان يجتمعان الاّ على مائدة الطعام ولا يتطارحان الاّ ما قلّ من الكلام . وكانت مود لا تُرَى الاّ مقطبة الوجه تغضب لاقل حركة وتثور لاقل كلمة . وكانت معاملتها لزوجها اشبه بمعاملة الهرة للفار . ومرّ على مثل ذلك شهر كامل — هو شهر العسل — كان لراسولوف امرّ من العلقم

ولكن ما انتهى هذا الشهر حتى عقبه انقلاب فجائي تغيرت فيه اخلاق مود وتبدّلت اطوارها في لحظة واحدة . فأخذت عيناها الزرقاوان تغزلان سحراً حلالاً . وبعد ان كانت تحسب زوجها نجساً دنساً طفقت تدنو منه وتبش في وجهه . وبعد ان كانت يدها من حديد لا تلتوي اليه اصبحت ناعمة لينة تُمَدُّ اليه فيصافحها ويقبلها

وقد استغرب راسولوف هذا التطور الجديد ، كما استغرب مثلهُ يوم زُفّت مود اليه . ولكنه اصبح الان كالمأخوذ لا يدري أفي يقظة هو ام في منام . وقد بات من جراء ذلك في حيرة وقلق واصبحت زوجته في نظره لغزاً من الالغاز لا يستطيع الى حلّه سبيلاً . وكان يقضي اكثر الساعات يتدبر حركاتها واعمالها ويتأمل في كل ذلك تأمل الفيلسوف البصير . غير انه كان كلما امعن في التأمل ازداد حيرةً وضلالاً

وجلس ذات مساء في مكتبه واسترسل في التأمل الى ان استغرق فيه واخذ يخاطب نفسه قائلاً : ان مود قد كفّت هذه الايام عن إرهاقي بطلبها المتواصل للمال ، ولم تعد تعزف على البيانو كعادتها ، وانقطعت عن المطالعة والزيارات ، ولم أعد اراها الا فكهةً مسرورة ، فلا تشتمني ولا تغضب لما اقول ولا تخاصم الخدم وتضطهدهم ، ولا تتردد الى الملاهي والمراقص ، ولم تمد تعباً بالازياء او الملابس الجديدة . ولكنها بدلاً من ذلك اخذت تخرج كل يوم بعد الغداء للنزهة وهي في ثوبها البسيط الاسود ولا تعود من نزهتها هذه الا مساء فتتناول طعام العشآء وتنام ملء عينيها . . . نعم ان مود قد تبدّلت من جديد هذه الايام ، ولا بدّ ان يكون لكل ذلك سبب خطير لا يزال مجهولاً لديّ ، وقد يكون من اعظم البواعث على قلقي واضطرابي . . . ولا يبعد ان يكون في كل ذلك خيانة لي لا اقوى على احتمالها . . .

ولما قال ذلك نهض من مكانه واخذ يسير في الغرفة ذهاباً واياباً وهو غائص في لجة التأملات . . ثم وقف بغتة كمن أشرق عليه فكرٌ جديد ، فضرب بيده على جبهته وصاح قائلاً : ان لمود سرّاً والاّ لما انقلبت هذا الانقلاب الفجائي العظيم وصارت حالها الى ما أرى . . . ولكن الويل لها اذا كان في انقلابها هذا اعتدآء على شرفي وعبث بحقوق الزوجية . . ان مود لا تزور الان أندية اللهو والطرب ، ولكنها تخرج كل يوم من المنزل وتغيب عنه الساعات الطوال . . . فلا شك انها تخرج لمقابلة عشيق لها ، وبه تجتمع كل هذه الساعات التي تقضيها خارج المنزل . — انها تلاطف الخدم الان وتُظهر لهم كل موّدة ، وهي لا تفعل ذلك الا لتكمّ افواههم عن افشآء ما لعلهم يعرفون من اسرارها . — انها لم تعد تهيم بالازيآء الجديدة ، لانها هائمة بما هو اهمّ من الازيآء . — انها لا تعاملني هذه الايام بالجفآء والغلظة كما كانت تفعل ذلك قبلاً ، ولا شك انها تريد بذلك ان تغطي على عينيّ ، فلا أبصر من اعمالها ما يدعو الى الشك والارتياب . — انها تنام الان بملء جفنيها ، ولا تنام المرأة هذا النوم الا اذا كانت عاشقة ومعشوقة ، فتنام بتمام الراحة والسرور والغبطة لانها لا ترى في نومها الا الاحلام اللذيذة . — نعم . . نعم . . ان مود عاشقة ، ولم يبقَ لديّ اقل ريب في انحرافها عن جادّة الصيانة وعدم اخلاصها لي . . . ولكن من هو هذا الحبيب الذي كلفت بحبه وتركتني ؟ واين تقضي واياه كل هذه الساعات كل يوم ؟ . .

واخذ يُجيل في ذاكرته اسمآء الذين يتردّدون الى منزله من الموظفين والاصدقآء ، فلم يرَ بينهم من وقعت عليه الشبهة دون سواه ، فزفر زفرةً محرقة وشعر بتعب مفرط نزل به ، فعاد الى كرسيه واستلقى عليه وصدره يكاد يتمزّق ألماً و يأساً

وكانت مود في ذلك الوقت غائبة عن المنزل فتمنى ان يعرف اين هي الان ولو بخسارة نصف ثروته . وبينما هو في هذه الحيرة وقد بلغ منه الاضطراب كل مبلغ خطر في باله جوي بكلرستون الشحني الاميركي ، وكان قد قرأ اعلانه في الجرائد وسمع شيئاً من اخباره العجيبة ، فرأى ان يجتمع به و يستشيره في الامر او يعهد اليه في اقتفاء اثر زوجته واكتشاف سرّها . وكأنه ارتاح الى هذا الفكر ، فأبرقت عيناه سروراً وقال في نفسه : اجل ، فلا يكشف ما انا فيه من هذه المبهمات الا بكلرستون ، فهو وحده قادر على تسرية همومي واطلاعي على كل ما أحببتُ ، والاّ فلا راحة لي ولا قرار ، وقد يشتدّ بي الامر فأفقد رشدي وأكون كالباحث عن حتفه بظلفه . . نعم نعم ، فلا بدّ من مقابلة بكلرستون غداً ومكاشفته بكل شيء ، وهو رجل اميركي أقدرُ على كتمان السرّ من رجال شحنتنا . واذا تحققت ظنوني وكانت مود تخدعني حقيقةً فلا أسهل عليّ حينئذٍ من تعريفها بمركزها و بمن هو الرئيس في هذا المنزل . . واما عشيقها فسأنفيه في الحال من بطرسبرج الى حيث يلقى جزاء خيانته

قال هذا واخذ جريدةً مما كان امامه من الجرائد على المائدة ونظر في اعلان بكلرستون قليلاً ليعرف محل اقامته والساعات التي يقبل فيها الزائرين ثم تنفّس طويلاً كأنّ عبئاً ثقيلاً أزيح عن عاتقه

وانه لكذلك واذا بزوجته داخلة . وكانت قد عادت من نزهتها وهي تطفر كالظبي الشارد ، فتقدمت الى الوزير من وراء وألقت يديها على عينيه تريد ان تمازحه كالاطفال وصاحت : من هذا ؟

ولم يكن راسولوف ليعبأ بها وهو في تلك الحال من القلق وتشتت البال . فصاحت به ثانيةً ويداها لا تزالان على عينيه ، وعيناها تنظران الى الجريدة التي امامه ، ثم أخذت برأسه فألقته على صدرها وقبلته في شفتيه وقالت — ماذا يلهيك هنا ايها الحبيب ؟ دع عنك كل همّ وهيّا بنا الى المائدة فقد جعتُ شديداً ولم يبقَ في طاقتي احتمال الجوع . . — وقبل ان يجيبها بكلمة اخذت تبعثر ما كان على المائدة من الاوراق وتضحك ضحكاً عالياً كالاطفال . ثم اخذت بيد زوجها وجذبته بدلال وسارت امامه الى غرفة الطعام وهو يتبعها مطأطئ الرأس منهوك القوى . . ولم تنقطع مود عن الضحك والمزاح . وكأنها ادركت ما يقلق بال زوجها ، فأرادت ان تكثر من مفاكهته ومداعبته وأخذت ترمية بفتات الخبز ، وهو ساكت لا ينبس ببنت شفة ، ينظر الى زوجته ولا يجسر ان يغير ظنونه بها . وقد صحّت عزيمته ان ينقد بكلرستون ما شاء من المال اذا هو أطلعه على حقيقة هذا السرّ وكشف له عن كل هذه الفصول الغريبة

* * *

ولما كان اليوم التالي خاطب راسولوفُ بكلرستونَ في فندق انكلترا تلفونيًا وطلب مقابلتهُ ، واتفق واياه ان تكون هذه المقابلة الساعة الثانية بعد الظهر . وما جاء الموعد المضروب حتى كان راسولوف يرقى الدرج المؤدي الى غرف بكلرستون في الطبقة العليا من فندق انكلترا . وكان لبكلرستون في هذا الفندق ثلاث غرف رحبة مفروشة بافخر الرياش واحسن الاثاث . فلما وصل راسولوف استقبله حاجبٌ طويل القامة جميل الصورة مرتدٍ سترةً سوداء ، فدخل به غرفةً من تلك الغرف وقال — تفضل اجلس هنا يا سيدي فلا يلبث المستر بكلرستون ان يوافيك

وكان من اثاث هذه الغرفة بساط من المخمل الاحمر الثمين يكسو كل ارضها . وقد قام في بعض جوانبها مائدتان كبيرتان ، كان على احداها ما لا يُحصى من الخناجر والمدى والمسدسات والمسامير والمطارق والجنازير والحبال والسفافيد الحديدية ذات الرؤوس الحادّة ، وعلى الاخرى مصباح كهربائي صغير وبعض الاواني الحديدية . وكان راسولوف ينتقل بنظره من أداة الى اخرى من تلك الادوات ، ولا يفهم لوجودها معنىً في ذلك المكان .

ولم يمضِ عليه بضع دقائق وهو في حيرته هذه حتى دخل عليه بكلرستون ، وكان شيخاً كبيراً محدودب الظهر ، اشتعل شعر رأسه بياضاً ، وقد وضع على عينيه زجاجات كبيرة زرقاء وارتدى سترة طويلة سوداء وكان في يده عصا ضخمة يتوكأ عليها . ولما دخل حيّا ضيفهُ وجلس اليه يحادثه و يسأله عن شأنه ، وهو يظهر البشاشة وكمال الاستعداد لخدمته

وكان راسولوف قد نسي دهشتهُ مما رأى في الغرفة من الادوات بما رآه الان من هيئة بكلرستون الغريبة . ولم تخفَ هذه الدهشة عن نظرات بكلرستون الحادة فابتسم وقال — يظهر انك لم تكن تتوقع ان تراني بهذه الشيخوخة يا سيدي

فقال راسولوف — نعم يا سيدي لاني رأيتُ رسمك في الجرائد يوم قدمتَ الى بطرسبرج وقد كنتَ وقتئذٍ شابًا طويل القامة جميل الوجه . فكيف اصبحتَ شيخاً هرمًا في مثل هذه السرعة ؟

فضحك بكلرستون طويلاً وقال — أصبتَ يا سيدي . . وها اني أوضح لك ما لا يزال ملتبساً عليك من امري

قال هذا وتحوّل بوجهه الى نافذة قريبة فنزع الزجاجات عن عينيه ومسحها ثم أعادها وعاد فأقبل على ضيفه وتابع حديثه قائلاً — كان في القطار الذي أقلّني الى بطرسبرج لورد من اكابر اغنياء لوردات الانكليز من مقاطعة و يلس الجنوبية يقال له اللورد كراوتن ، وهو فتى جميل الصورة طويل القامة ، وقد قابلته في برلين وتعارفنا وركبنا القطار معًا الى هنا . وكان رجال صحافتكم قد عرفوا بقدومي قبل ان وصل القطار ، فاسرع جمهور منهم الى المحطة ومعهم الآلات

التصوير به. فلما خرجتُ واللوردَ كراوتن من القطار اتجهت الابصار بالطبع الى رفيقي لا اليَّ، والقوم يظنونه «جوي بكلرستون» الشحني الاميركي القادم، فأخذوا رسمه ووصفوه في صحفهم كما رأوه وأهملوا امري انا، وكان ذلك على وفق ما أشتهي لاني اودُّ التكتّم في اعمالي كشحني. وزد على ذلك فان اللورد كراوتن اقرب الى الصبغة الاميركية مني انا اليها لانه طويل القامة اشقر اللون حليق الوجه

كان بكلرستون يتكلم ويراقب اماثر وجه جليسه فلما رآه قد اطمأنَّ الى الحديث ولم يبق ما يريبه منه عاد فقال — وها اني يا سيدي بصفتي الشحني الاميركي الذي تطلب مقابلته أرجو ان تفضي اليَّ بما تشاء وتكون على أتمّ ثقة من اخلاصي في خدمتك

فقال راسولوف — لقد جئتُ أعرض عليك ان تتتبَّع لي آثار سيدة يهمني امرها جداً، فاريد ان أعرف الى اين تذهب هذه السيدة كل يوم، واين تقضي وقتها من الساعة الثانية حتى السادسة بعد الظهر، بل أريد ان يدخل رجالك او الرجل الذي تعيّنه منهم لهذا الغرض الى المنزل الذي تتردّد اليه السيدة في مدة غيابها عن منزلها

قال — حسن. وهل جئتني برسم السيدة؟

قال — لا

— ارجو ان ترسل به اليَّ اليوم مساءً اذا تمَّ الاتفاق بيننا على العمل

— سمعاً وطاعةً

— واعلم يا سيدي ان نجاحي في هذه المهمة يتوقف على صراحتك التامة في كل ما أريد الوقوف عليه من امر هذه السيدة

— لا شك في ذلك فاسألْ عما تريد

— مَن تكون هذه السيدة؟

— زوجتي

— كم لها من العمر؟

— اربع وعشرون سنة

— متى اقترنتَ بها؟

— منذ شهرين فقط.. وقد قضينا هذه المدة في أنكد حال

— هل وقعت شبهتك على احد من زائريك؟

— كلاَّ.. وانا لو عرفتُ غريمي لانتقمتُ منه بنفسي

— وما كنتَ فاعلاً لو عرفتهُ؟

— لا أعلم.. وهل يهمك ان تعرف ذلك ايضاً يا سيدي؟.. ان المهمة التي أعهد بها اليك هي ان تعرف المكان الذي تختلف اليه زوجتي، وكيف تقضي وقتها هناك، ومَن تقابل؟

— أصبتَ. وما سؤالي الآ لأطلع على ما تنويه للرجل. فاذا كان قصدك ان تبارزه لتتخلص منه، قمنا نحن عنك بهذا الامر وكفيناك هذه المخاطرة بنفسك الى هذا الحد

فأطرق راسولوف قليلاً وقد أدرك خطر المسألة. ثم رفع رأسه وقال — لا.. لا أريد ان نقتله. فأنا اتولى ما يجب القيام به بحقه وحق زوجتي بنفسي.. وغاية ما ارجوه منك يا سيدي ان تطلعني بكل جلاء على ما أردتُ الوقوف عليه من امر زوجتي واجتماعها بعشيقها اذا كان ثمَّ عشيق، وتعرّفني الآن بمقدار الاجرة التي تطلُب مني لقاء ذلك

— لا يمكنني تعيين الاجرة الآن، لان ذلك يتوقف على عدد التقارير التي تطلب ان أرفعها اليك

— لم أفهم مرادك يا سيدي فأرجو ان توضحه لي

— حبًّا وكرامةً فاليك البيان: اذا أرسلتَ اليَّ اليوم مساءً برسم زوجتك أشرع غداً من الساعة الثانية بعد الظهر في العمل. فأعين رجلاً او اكثر من رجالي لمراقبة زوجتك واقتفاء أثرها. وفي نحو الساعة الثامنة مساءً يصلك تقريري الاول بهذا الشان. ثم أتابع عملي فأرسل اليك بتقاريري يوماً بعد يوم، الى ان تكتفي او تقف على كل ما أحببتَ

— فهمتُ الان. فانا ارجو ان ترسل اليَّ بثلاثة تقارير عن ثلاثة ايام وبعدها انبئك بما يلزم. فكم تتقاضى مني اجرة عملك في هذه الايام الثلاثة؟

— ستة آلاف ريال فقط، تدفعها مقدَّماً قبل

الشروع في العمل

فحملق راسولوف بعينيه وقال — الا تظن يا سيدي ان هذه القيمة جسيمة جداً ؟

فضحك بكارستون وقال — كلاً يا سيدي ، وانما هي اقلّ ما يمكنني تقاضيه لمثل هذه المهمة · ولو كنتَ واقفاً على كل ما يجب بذلهُ من المشقة والتضحية في سبيل ذلك لما استكثرتَ المبلغ

— مهما كان الامر ، فان نزهة ثلاثة ايام في اثر غادة حسناء لا تقتضي مثل هذه الاجرة

— انتَ تريد المساومة يا سيدي لانك تنظر الى المسألة على غير ما يجب ان يُنظر اليها ، وانا لا ألومك لانك لا تدرك قيمة الاخطار التي نتعرّض لها في تتبّع خطوات زوجتك الحسناء ·· فاسمع أُطلعك على شيء من امر هذه النزهة الرائعة : ان رجالي سيُعنون باقتفاء اثر زوجتك الى ان تبلغ المنزل الذي تختلف اليه للاجتماع بمن أحبّت . فاذا دخلت فيضطرّ احد رجالي الى دخول المنزل ايضاً وراءها ، ويضطرّ ان يتتبّعها حتى الى الغرفة التي تدخلها ، ويضطرّ ان يكمن في تلك الغرفة لسماع ما يدور بينها وبين عشيقها من الاحاديث ، ويضطرّ ان يكشف وهو في حالتهِ تلك كل ما يسمع وكل ما يرى ·· فاذا شعر بوجوده هناك احدُ العاشقين — بمجرّد حركة او عطسة تبدو منه — فهل تدري يا سيدي كيف تكون نهاية نزهتهِ حينئذٍ ؟ — لا شك انك أدرك مني بما يكون ·· والان أسألك يا سيدي : مَن تُرى يكون المسؤول عن حياة رجالي في تعرّضهم لمثل هذه الاخطار ؟ انتَ ام انا ؟ لا شك ان المسؤول هو انا لا انت ·· ولا شك اني أُضطرُّ في مثل هذه الاحوال ان أدفع الى اهل كل مَن يُقتل او يُصاب بفادحة من رجالي في اثناء قيامهم بوظائفهم أضعاف ما اتناوله منك او من سواك من الاجرة مهما كانت جسيمة في عينيك ·· واذا لم يُقتل احدٌ في المهمة التي تعرضها عليّ ، أفلا تظن ان دخول المنزل فقط وراء زوجتك يقتضي مالاً جزيلاً ؟ ألا تظن اننا نضطرُّ ان نشتري خدم المنزل بكل ما يطلبون من المال لنتمكن من الدخول توصلاً للضالة التي ننشدها ؟

قال بكارستون هذا وسكت · وكان راسولوف يسمع كلامه بأتمّ الاصغاء والاعجاب ، فلما وصل الى هذا الحدّ من الكلام مدّ راسولوف يده الى جيبه فأخرج حقيبة من جلد كانت معه فأخذ منها ورقةً مالية كتب عليها القيمة المطلوبة ثم وقّعها وقدّمها لبكارستون وهو يقول — لقد اقتنعتُ يا سيدي بصحة طلبك ، وهذه حوالة بستة آلاف ريال تتسلمها في ايّ وقت شئتَ من اي مصرف شئت من مصارف العاصمة

ولما قال هذا نهض فودّع وخرج وهو يمنّي نفسهُ ببلوغ القصد في بضعة ايام فقط ، ثم يصفو له الزمن ، فيعيش كما أحبّ

(البقية في غير هذا المكان من هذا الجزء)

شذرات (1)

(لجبران افندي خليل جبران)

عندما رمى بي الله حجراً الى بحيرة الحياة احدثت الدوائر علَى سطحها ولكنني ما بلغت اعماقها حتى صرت هادئاً

الناس رجلان ، رجل مستيقظ في الظلام ورجل نائم في النور

انا كولمبوس نفسي ، وفي كل يوم اكتشف قارة جديدة فيها

الحب الذي لا يتجدد في كل يوم وليلة يتحول الى شكل من قوة الاستمرار ، وهذه بدورها لا تلبث ان تنقلب عبودية

اشد الناس كآبة كئيب لا يعرف سبب كآبته

---

(1) انظر باب « الآثار الادبية » في هذا الجزء

حقيقة الناس في ما يخفونه عنك · فان شئت ان تعرف الناس فلا تصغ الى ما يقولونه بل الى ما لا يقولونه

ما اظلم من يعطيك من جيبه ليأخذ من قلبك

الخيال حقيقة لم تتحجر بعد

تشربون الخمر لتسكروا ، واشربها لا صحو من خمرة اخرى

بعض الوجوه الحريرية مبطنة بنسيج خشن

اقرب الناس الى قلبي ملك لا مملكة له ، وفقير لا يعرف كيف يستعطي

لم يعمل البشر الا بمقتضى قول القائل « خير الامور الوسط » لذلك تراهم يقتلون المجرمين والانبياء

يظن بعض الناس انني اغامزهم عندما اغمض عينيَّ كي لا اراهم

كان الموهوب في الماضي يفاخر بخدمة الملوك اما اليوم فانه يدّعي خدمة المساكين

الحياة مركب يستسرعه البطيء فيتنحّى عنه ، ويستبطئه السريع فيتنحّى عنه ايضاً

يقولون لي لست والعالم الذي تسكنه سوى ذرة رمل على شاطئ بحر اللانهاية ، وليست العوالم اجمع سوى ذرّات على شاطئي

اشتاق الى الابدية لانني ساجتمع فيها بقصائدي غير المنظومة وصوري غير المرسومة

انا الشعلة وانا الهشيم و بعضي يأكل بعضي فهلا حولت وجهك عني كي لا يعميك دخاني

كيف اشك بعدل الحياة واحلام من يفترش الريش ليست باجمل من احلام من يفترش الثرى ؟

لولا جهلي ما تعرفونه لما عرفت ما تجهلونه

كيف يستطيع مربع الراس ان يفتكر افكاراً مستديرة ؟

اللؤلؤة هيكل بناه الألم حول حبة رمل · واجسادنا هياكل بناها التشويق حول ذرات من الروح

كلما وضع امامي شكل من الطعام اسأل ذاتي ما هذا الذي سألتهمه الان يا ترى؟ اعالم شمسي كامل التكوين ، ام سديم لم يكمل بعد ؟

ما اضيق عيش من يؤثر اجتهاد النمل على انشاد الجنادب !

المتدين لا يتمذهب والمتمذهب لا دين له

هل كانت محبة ام يوذاس لولدها اقل من محبة مريم ليسوع ؟

لو قال الشتاء : « الربيع مختبئ في قلبي » فمن يا ترى يصدقه ؟

للرجل العظيم قلبان ، قلب يدمي وقلب يتجلد

قد تخور الضفادع كالجواميس غير انها لا تجر المحراث في الحقل ولا النوارج على البيدر اما جلودها فلا تصلح للاحذية

كم مرة عزوت لنفسي جرائم لم ارتكبها قط كي لا اظهر ارفع ممن يجالسني من المجرمين

حجتي تقنع الجاهل وحجة الحكيم تقنعني · اما

من تراوحت عاقلته بين الحكمة والجهالة فلا اقنعه ولا يقنعني

اجعلني يا رب فريسة للاسد قبل ان تجعل الارنب فريسة لي

اجعل يا رب قوة اعدائي مضارعة لقوتي كي لاتكون الغلبة الا للحق

اذا كان القصد من الدين الثواب ، ومن الوطنية المصلحة ، ومن العلم التفوق ، اذن فاعطني الدنيوي الحر ،وعديم الوطنية المخلص، والغبي المتواضع

سيأتي زمن يأبى فيه ابناؤه الانتساب الينا مثلما يأبى بعضنا الانتساب الى طائفة السعادين

بعض الناس يسمعون بآذانهم والبعض ببطونهم والبعض بجيوبهم والبعض لا يسمع ابداً

ما اشبه ارواح بعض الناس بالاسفنج فانك لا تستقطر منها الا ما امتصته منك

أبعد الناس عن قلبي راغب يمثل دور مرغوب

لو وجد رجلان متشابهان لما وسعتهما الدنيا

ولدتُ ثانية لما تزوج جسدي من نفسي

قلت للحياة الا فاسمعيني الموت متكلماً، فرفعت الحياة صوتها عن ذي قبل وقالت انت تسمعه الان

هذا تاريخ البشر—ولادة وزواج وموت، ثم ولادة وزواج وموت ثم ولادة وزواج وموت—ولكن في فجر كل عهد من سلسلة اجيال خالية الا من الولادة والزواج والموت يظهر في الارض مجنون ذو فكرة غريبة ويقص على البشر حلماً رآه في عالم غير هذا العالم و بين مخلوقات ارقى من سكان هذه الارض الذين لا يرون في احلامهم سوى الولادة والزواج والموت

انما الانتظار سنابك الزمن

ما اغربني عندما اشكو الماً فيه لذتي

عندما تبلغ قلب الحياة تجد انك لست ارفع من المجرمين ولا ادنى من الانبياء

اكثر ذوي العواطف الرقيقة يتسرعون بمس عواطفك خوفاً من ان تسبقهم وتمس عواطفهم

عندما يلمس الرجل بيده يد امرأة يلمس كلاهما اذيال ثوب الابدية

ما اكثر النساء اللواتي يستعرن قلب الرجل، وما اقل اللواتي يمتلكنه

قولك انك لا تفهمني مديح لا استحقه انا واهانة لا تستحقها انت

لو لم تكن المجرة في داخلي لما عرفت بوجودها

وقفتُ امامك مرآة صافية فنظرتَ بي ورايت ذاتك منعكسة بخطوطها والوانها، فتوهمت انك تحبني، والحقيقة انك لم تحب سوى شبحك

﴿ الى الله ! ! ﴾

يا ربِّ اين تُرى تُقام جهنَّمٌ
للظالمين غداً وللاشرارِ
لم يُبقِ عفوُكَ في السماوات العُلى
والارض شبراً خالياً للنارِ

اسماعيل صبري

توطئة في الشعر

— ١ —

من مقدمة كتاب عرائس الافكار في صناعة نظم الاشعار
(للصحافي الاستاذ الشيخ الياس الظاهر)
(والكتاب تحت الطبع)

لا يخفى ان الشعر في اللغة مشتق من الشعور وهو في التعريفات « علم الشيء اذا حصل بالحس الظاهر والباطن ولهذا ينفصل عن العلم فانه علم الشيء اذا حصل بالنظر والاستدلال العقليين » فالشاعر غير العالم ، قال ابن رشيق « سمي الشاعر شاعراً لانه يشعر بما لا يشعر به غيره لما هو عليه من قوة التخيل وشدة الاحساس بما بين نفسه وبين العالم الخارجي ، يرى ما في الخارج صوراً لما في نفسه من الداخل ، وما في نفسه من الداخل ارواحاً ومعانيَ لما في الخارج » . قال الشيخ خليل اليازجي :

« ليس شعراً الا الذي كل بيتٍ
فيه معنى يدعو الى الاسماعِ »

ومن محسنات الشعر كما قال المتقدمون « الاشارة الى المعاني من بعيد وتقديم القيود على المقيدات والصفات على الموصوفات — كلما سمحت اللغة بذلك — بحيث تجيء الصور الكلامية كالصور الذهنية او اقرب ما يكون اليها في وضع اجزائها ونسبتها بعضها الى بعض ، وبالجملة يكون الكلام تصويراً لمشاهد لا اخباراً عن غائب »

واذا كان الكلام يقصد فيه التزيين والمبالغة كالوصف والمديح والرثاء فعلى الشعر ان يحليه بالانواع البديعية والحوادث التاريخية والنكات الغريبة المستظرفة قال اليازجي الكبير :

« نخير الشعر ما قد كان فيه غرابة نكتة او نوع لطفِ »
« وشرّ الشعر بيت ليس فيه امامك غير حيطانٍ وسقفِ »

وهذه هي الفوارق المعنوية بين الشعر والنثر فالشعر ابلغ من النثر لان الاقتصاد في الشعر اكثر منه في النثر . هذا في المعنى واما في اللفظ فالفارق هو الوزن

ومن مميزات الشعر المعنوية كما قال شعراء الفرنجة « قوة التصورات وشدة التأثر والانفعالات فالمخيلة فيه تحسّن وتنمّق المحسوسات والمرئيات وتبرزها في صورة من الجمال ابهى مما هي عليه في الواقع ثم تجسّم المعقولات بحيث تجعلها قريبة الفهم سهلة التناول والقلب يتأثر من الموضوع فيجعل الشاعر يتأثر اكثر من غيره ويثير فيه من الانفعالات النفسية والحركات الهوائية ما يأبى الكلام معه الا ان يكون موزوناً في غالب الاوقات فيصبح الشعر آلة طبيعية ترتاح اليه النفس كما ترتاح للغناء » قال ابو تمام :

« والشعر ريحان النفوس وانما
ريحان روضته الصحيحُ الجيدُ »

« علَى ان للتصورات والانفعالات حدوداً لا يتعداها العقل فاذا شردت المخيلة عن حيز الاحتمال ذهبت الغاية من الشعر . اما ما يقال عن الالهام وهو ما يختلج بالنفس من الحمية وهزة القريحة

عند القاء الشعر فهو نتيجة شدة التأثر وقوة التصور»

ومن مميزات الشعر اللفظية الوزن والقافية . فالالفاظ فيه تتبع المعاني . ولما كانت المعاني الشعرية اكثر حماسة وأشد تأثيراً كثرت في الشعر الاستعارات والكنايات والتشابيه اكثر منها في النثر

ومن اهمية الشعر انه كما نقل المتقدمون نشأ قبل النثر وهو لا يموت الا بعده لان موضوعه الجمال كما يقول شعراء الفرنجة وهو يدوم ما دامت النفس توّاقة للمعالي ميّالة للكمال المتصوّر . قال الشاعر:

« يموت رديء الشعر من غير اهله
وجيده يبقى وان مات قائله »

ومن شروط الشعر كما قال ابن خلدون حفظ الحرّ النقي الكثير الاساليب تنشأ في النفس ملكة ينسج على منوالها . واقل ما يكفي في هذا المحفوظ المختار شعر شاعر من الفحول مثل ابن ابي ربيعة وكثيّر وذي الرمة وجرير وابي نواس وحبيب والبحتري والرضي وابي فراس واكثره شعر كتاب الاغاني والمختار من شعر الجاهلية ومختارات الزهور . قال الخوارزمي من روى حوليات زهير واعتذارات النابغة واهاجي الحطيئة وهاشميات الكميت ونقائض جرير وخمريات ابي نواس وتشبيهات ابن المعتز وزهريات ابي العتاهية ومراثي ابي تمام ومدائح البحتري وروضيات الصنوبري ولطائف كشاجم ولم يخرج للشعر فلا اشبّ الله قرنه

ومن كان محفوظه خالياً من طلاوة الجديد ومتانة القديم كان نظمه قاصراً رديئاً ولا يعطي الرونق والحلاوة الا كثرة المحفوظ والغوص على المعاني الجديدة المبتكرة وطول الباع وسعة الاطلاع قال الشاعر :

لا تعرضنّ لشعر ما لم يكن علمك في البحره جسرا
فلن يزال المرء في فسحة من عقله ما لم يقل شعرا

دهاء المرأة

[رواية]

(تابع لصفحة ٣٣٣)

ورأى راسولوف بعد خروجه من فندق انكلترا ان يذهب الى دار لجنة الاحصاء ، وكان قد انقطع عنها الايام الاخيرة لاشتغال افكاره بزوجته . وقد شعر الان، بعد ان عهد في الامر الى داهية رجال الشحنة ، بان كربه او بعض كربه قد سرّي عنه ، فعزم على ان يعود الى عمله . وكانت الحكومة تنتظر منه كلّ تدقيق في البحث وكلّ حذق في وضع الرسوم والخرائط لجبال اورال واماكن المناجم والمعادن فيها . وقد وضع المهندسون الذين اقامهم راسولوف لهذا الغرض عدة خرائط جيولوجية لهاتيك الانحاء الجبلية كانت غاية في الدقة والضبط

فلما دخل مكتبهُ في دار اللجنة اخذ هذه الخرائط وانبرى يُدقق فيها النظر ، وقد نسي زوجتهُ وما كان يخامره بسببها من الهواجس والاضطرابات . وكان قد أصدر اوامره لجماعة المهندسين ان يضعوا رسوماً للخطوط الحديدية التي وافقت اللجنة على مدّها في جبال اورال بين المناجم الكبيرة والمعامل التي يجب انشاؤها . فرأى كل ذلك على الخرائط وثبت لديه ان عمل اللجنة سائر الى الامام بنجاح مطّرد ، فسرّ سروراً عظيماً وأيقن بادراك كل ما كان يملّل به نفسهُ من الاماني والآمال

وفي الساعة السادسة غادر دار اللجنة وعاد الى منزله .

فاستقبلته زوجته وهي تزهو بجمالها الفتان وتتنقل بخفة الغزلان. وما كاد يجمع افكاره حتى وثبت اليه وقبلت خديه وهي تعبث بوجههِ ويديه. ثم اخذت تجرُّهُ بيدها الى غرفة المائدة وهي تسلّيه بنكاتها وتضحك وتلعب وتغني وتطرب، وهو يظن انه في حلم، فيعصر جبينهُ ويفرك عينيه، ومود تسترسل في الضحك والمداعبة وقد ازداد صوتها رنينًا وكلامُها عذوبةً. ثم ناولتهُ قدحًا من الشراب الفاخر واخذت مثلَهُ وطفقت تومئ اليه باصبعها وعينيها ايماءات مختلفة كلُّها تهديد في معرض الغنج والمداعبة

وكان راسولوف قد عاد اليه بعض رشده وأدرك انه في اليقظة لا في المنام. ولكنه لم يفهم شيئًا من ايماءات زوجتهِ وحركاتها. وما رأته هي في هذه الحالة من الذهول حتى استلقت عَلَى ظهرها من شدة الضحك وقالت — اراك قد تغيرتَ هذه الايام كثيراً يا حضرة الجنرال ولستُ أدري السبب لكل ذلك

فلم يخطر على بال راسولوف عند هذا القول الاَّ ان مود مطَّلعة على ما رآهُ من جهتها وانها قد عرفت كل ما دار بينهُ وبين بكلرستون من الحديث. ولكنه تجلد وقال — وانا لا أعلم شيئًا مما تشيرين اليه ايتها العزيزة.. فأفصحي عما تريدين

قالت — ولكني في غِنىً عن كل إفصاح.. ولعلك أدرى مني بالسبب

قال — بل أجهله كل الجهل

قالت — عجبًا! وكيف نسيتَ كم كنتَ تتزلَّف اليَّ على اثرِ زواجنا.. وكيف كنتَ تحاول التقرُّب مني والتودد اليَّ؟..

قال — اني لم أنسَ هذا. كما اني لم أنسَ ما كنتِ تقابليني به من الصدّ والجفاء

قالت — نعم. بيدَ اني لم اكن اعاملك كذلك الاَّ لما كان ينتابني من النوب العصبيَّة والانفعالات النفسية. اما وقد زال الان ما كنتُ أعانيه من هذه الآلام، فلم يبقَ ما يحول بيني وبينك. غير اني رأيتك على خلاف ما كنتَ عليه قبلاً. فاما ان تكون قد كرهتني، او تكون قد نصبتك غادةٌ اخرى فأعرضتَ عني

قال — لا هذا ولا ذاك يا سيدة الملاح. فانا الان كما كنتُ قبلاً مفتون اللب بكِ مسلوب كل راحة الا بقربكِ، وقد جعلتُ في يديكِ قلبي وروحي تتحكمين بهما تحكُّم الملك القدير بالعبد الكسير، حتى طاب لي الذلُّ وهان عليَّ الهوان في سبيل مرضاتك، ولم يبق لي مطمع في الدنيا كلها الاَّ ان تكوني عند ظني بكِ وتقابلي محبتي بمثلها

قالت — فاعلم اذاً اني قد برئتُ الان تمامًا وأصبحتُ بجملتي لك

ولم يكن راسولوف ينتظر مثل هذه السعادة فأشرق وجههُ سروراً ولمعت عيناه هناءً ووثب الى زوجته يريد ان يقبلها ويضمها الى صدره، واذا بأحد الحجاب قد دخل وبيده كتاب، عرف راسولوف في الحال انه من بكلرستون، فاكفهرَّ وجهه قليلاً، ولكنه اخذ الكتاب ودخل الى مكتبهِ. وقد صدق ظنه لان الكتاب كان من بكلرستون وقد أرسل به اليه مع احد خدمه يطلب سرعة ارسال رسم السيدة مود وكان الرسم موضوعًا في كفاف (برواز) بديع على المائدة في المكتب، فأخذه بسرعة ولفَّه بجريدة ثم خرج فسلَّمه بنفسه الى خادم بكلرستون، وعاد بعد ذلك الى غرفة الطعام وهو يرجو ان يطيل الاقامة هذا المساء الى جانب زوجته، وقد سرَّه تقرُّبها منه فقال لها — واين كنتِ تتنزهين اليوم يا عزيزتي؟

فقالت — لم اخرج اليوم الى النزهة لاني قضيتُ الوقت كله في المنزل

فذعر راسولوف وقال — ولماذا لم تخرجي؟

قالت — أردتُ ان اعزف قليلاً عَلَى البيانو لاني هجرتُها منذ زمان

فازداد راسولوف قلقًا وقال — ولكني أنصح لكِ بالخروج غداً وكل يوم بلا انقطاع لان في هذه النزهة عافيةً لكِ وسروراً لي

قالت — لا أعلم اذا كانت نفسي ستميل غداً الى الخروج

قال — بل يجب ان تخرجي لانكِ لم تعودي الى

صحتك الا بمثل هذه النزهات اليومية ، فلا تغيّري خطتك
قال هذا وعاد فدخل الى مكتبه ليدخن وقد اشتدّ به القلق وخشي ان تكون زوجته قد درَت بما تواطأ به ظنها مع رئيس الشحنة الاميركية فعدلت عن الخروج من المنزل ، وقد لا تخرج منه اياماً فيذهب ما أعدّه لترصّدها ادراج الرياح ويخسر الستة الآلاف ريالاً التي دفعها لهذا الغرض

وكانت مود قد استبطأت زوجها في مكتبه فدخلت عليه وهو لا يزال حليف الهم والغم وجلست الى المائدة بقربه وقد اسندت رأسها الى صدره وقالت — عسى ان لا أكون قد أغظتك ايها الحبيب بكلمة قلتُها او حركة بدت مني على غير قصد

فقال — معاذ الله ايتها العزيزة

قالت — فلماذا اذاً تركتَ المائدة وجئتَ تنفرد هنا في مكتبك ؟

قال — ما جئتُ الى هنا الاّ لأدخن لفافتي ولا ألبث ان أعود

قالت — ليس الامر كما تقول لاني قرأتُ في وجهك ما لم تستطع ان تخفيه عني · وقد انقلبت سحنتك بحال دخول الحاجب علينا ولا يزال القلق والارتباك ظاهرين عليك حتى الان · فماذا دهاك ومن اين هذا الكتاب الذي جاءك ؟

فقال راسولوف وهو يزداد ارتباكاً — هو من بعض المهندسين في لجنة الاحصاء

فتظاهرت مود بتصديقه واندفعت تحدثه كأن لم يجر شيء · وكانت من وقت الى آخر تشرئبُ الى المائدة كأنها تبحث عن شيء · ثم انتصبت بغتةً وقالت وقد القت على زوجها نظراً حاداً — ولكن اين رسمي ؟ انه كان عَلَى هذه المائدة فأين أخفيته

ولم يكن راسولوف يتوقع ان تفاجئه زوجتهُ بهذا السؤال ، فذعر واخذ ينظر الى المائدة وما عليها من الكتب والجرائد ثم تمتم قائلاً — انه قد وقع من يدي فكُسر زجاجه فأرسلته الى من يصلحه

وكانت مود قد ثار ثائرها فرفست الارض برجلها وصاحت بغضب شديد — كذبت ايها الخبيث !·· لاني لم ابرح المنزل دقيقةً واحدةً هذا النهار وقد دخلتُ مكتبك قبل الظهر وكان الرسم عَلَى المائدة ·· فلا شك انك رميتَ به الى الخارج

فقال — رحماكِ يا عزيزتي ·· وهل يمكن ان يكون ذلك ؟

ولم ترد مود ان تسمع شيئاً فخرجت وهي تزداد هياجاً ودخلت مخدعها ثم عادت منه بسرعة تحمل رسم زوجها ، فطرحته امامه الى الارض وحطّمته بقدميها ، ثم خرجت ترغي وتزبد وتشتم وتتهدّد ، وراسولوف واقف كالصنم لا يبدي ولا يعيد ··· ولبث بضع دقائق في تلك الحالة من الذهول الشديد كأنّ مسّاً اصابه · ولما ملك روعه زفر زفرةً حارّةً وانحدرت الدموع من مقلتيه ثم انطرح على مقعد في مكتبه وهو يئنُّ ويتألم ، وظلّ على ذلك الى ان غلب عليه النعاس فنام واليأس آخذ منه كل مأخذ

***

ونهض راسولوف في صباح اليوم التالي حزيناً كئيباً فتناول طعام الفطور وحده وخرج هائماً على وجهه · وقد جاء الى دار لجنة الاحصاء ولكنه كان يتحرك وينظر ويسمع وهو لا يعي شيئاً ·· وهكذا قضى النهار بطوله في دار اللجنة وهو مشرّد الافكار تائه اللب · ولما عاد الى منزله سأل عن زوجته فقيل له انها لم تعد من نزهتها بعد فدخل مكتبه وهو موقن بانه سيأخذ عما قليل اخبار بكلرستون فيما يتعلق بسلوك مود · وما اقبلت الساعة الثامنة حتى ورد عليه « التقرير الاول » من التقارير المنتظرة ، فنشره واذا فيه ما يأتي عن لسان احد رجال بكلرستون ، قال :

« كنتُ الساعة الثانية بعد ظهر هذا النهار أرقب من بعيد باب منزل الوزير راسولوف · وما مضى على وقوفي الا بضع دقائق حتى خرجت السيدة مود من ذلك المنزل فوقفت دقيقةً وهي تلتفت يمنةً ويسرةً ثم اندفعت تسير الى جهة الحديقة العمومية وانا أقتفي آثارها دون ان تشعر

بي. وفي طريقها دخلت مخزناً فاشترت منه بعض الروائح العطرية بخمسة ريالات ثم خرجت فاستوقفت سيارةً ركبتها وراحت تنهب الارض ، وانا في سيارة اخرى وراءها ،الى ان وصلت منزلاً فخماً في اول حيّ الامراء رقمه ٢٨١ فترجلت عند رتاجه الخارجي ودخلت مسرعة ، فسارت اولاً بين اشجار الحديقة ثم دخلت المنزل . وكنتُ انا قد دخلت الحديقة ايضاً ،وكان البواب واقفاً فرشوته بمئتي ريال بعد ان أطلعته على مهمتي وحسن قصدي . ولما اخذتُ أرقى درج المنزل بصرتُ بخادمة كانت في اعلى الدرج فأخذتُها ناحيةً وبعد اخذ وردّ رشوتُها بخمسمئة ريال ،فسارت امامي ترشدني الى الغرفة التي تجتمع فيها السيدة مود بحبيبها . وقد عرفتُ من الخادمة انه لورد من لوردات الانكليز يقال له اللورد كراوتن قدم الى بطرسبرج منذ بضعة اشهر واستأجر هذا المنزل واخذ يعيش فيه بمنتهى الترف والابّهة ، وهو عزب لا اهل له هنا .. وبعد ان استعلمتُ من الخادمة عن كل ما أردتُ سرتُ واياها الى غرفة صغيرة ملاصقة للغرفة التي يتقابل فيها الحبيبان . فاستترتُ في هذه الغرفة وراء بعض السجوف بالقرب من نافذة صغيرة في الجدار كنتُ أستطيع ان أبصر وأسمع منها كل ما يمكن ان يدور في الغرفة من الحديث . ولم يمضِ على انتظاري الاّ بضع دقائق حتى دخلت السيدة مود وفي اثرها اللورد كراوتن ، وهو شاب جميل الصورة طويل القامة لا يُربي عمرُهُ على الثلاثين . وقد رأيتهما يقبلان بعضهما بعضاً ، وسمعتُ كل ما دار بينهما من الحديث وكان كله مطارحات غرامية . وكانت السيدة مود اكثر كلاماً وضحكاً من رفيقها . وقد ذكّرته بتعارفهما في لندن وما تبع ذلك من افتراقهما ،لان اللورد كان قد انحرفت صحتهُ فشخص الى القاهرة حيث أقام سنةً كاملةً ، توفيت في اثنائها والدةُ السيدةِ مود ، وجاءت هي الى بطرسبرج ودخلت في خدمة ابنة الوزير راسولوف ثم اقترنت بالوزير نفسه ... وكانت السيدة مود تشكلمو حبيبها يعانقها بلهفة ويضمها الى صدره ويؤكد لها انه قد لقيها الان فلن يفارقها ، وليس لقوة بشرية ان تفصلها عنه بعد الان .. وبعد ان أقاما على ذلك نحو ساعتين ونصف الساعة وهما يتطارحان الحديث و يشربان مما كان امامهما من الشراب خرجا كما دخلا ، ولم تلبث السيدة مود ان ركبت سيارتها وقفلت راجعةً الى منزلها . وخرجتُ انا من مخبئي وكانت الخادمة تشير اليّ وترشدني الى ان خرجتُ من ذلك المنزل وعدتُ الى فندق انكلترا لأرفع تقريري هذا الى رئيسي المسترجوي بكلرستون »

قرأ راسولوف هذا التقرير ولم يستغربه كثيراً لانه رآه يعرب عما كان يخالجه من الافكار والهواجس .. ولم يكن راسولوف في حاجة الى مثل هذا التقرير لتقرير ما في نفسه من الاعتقاد بخيانة زوجته له ، لانه رأى في اعمالها ادلّ برهان على خيانتها . ولكنهُ لم يكن ليدرك سبب هذه الانقلابات والاطوار الغريبة التي كانت تظهر بها احياناً ، فتغضب في ساعة الرضى ، او ترضى في ساعة الغضب ، وتداعبه ثم لا تلبث ان تنفر منه لاقلّ سبب وتندفع تقذفه باشدّ لواذع الكلام ... وجلُّ ما استفاده راسولوف من التقرير وكان في نظره ذا شأن خطير أنه عرف عشيق زوجته واسمهُ وشهرتهُ وعرف ان علاقتها به قديمة وانه مصمّم الان على الاقامة في بطرسبرج والاستئثار بمود

عرف راسولوف كل هذا ورأى انه أضعف من ان يقوى، على الانتقام من خصمه او يقوى على طرده من البلاد او يحول دون اجتماع زوجته به . ولم يبقَ امامه الاّ احد أمرين : فاما ان يبارز اللورد ، او يطلّق مود ، — وهو في الحالين خاسر، — لان اللورد اقوى منه ، ومود لا يهمها الطلاق وقد اجتمعت بحبيبها ...

وكانت مود في تلك الساعة قد خرجت من المنزل وعرف راسولوف من وصيفتها انها تناولت طعام العشاء وذهبت الى الاوبرا ، فمضّهُ ذلك وآلمه كثيراً . وكان لا يدري ماذا يصنع او على ماذا يعوّل ، وقد ضاق صدره فخرج من مكتبه واخذ يطوف في غرف المنزل .. ثم نزل الى الحديقة وجعل يجول فيها من مكان الى آخر ، وكان كالمجنون ، يقف تارة شاخصاً مبهوتاً ، ويجلس تارةً أخرى

وهو يتمتم ويغمض عينيه ويزفر الزفرات المحرقة .. ثم يعود فيثب قائماً ويرفع يده متهدداً ويقسم ان ينتقم شر الانتقام .. او يعود فيسير في ارض الحديقة وقد زال بعض اضطرابه وتجلى امامه شبح مود بأبهى جمالها فيشعر بحبه لها وارتياحه الى ان يصفح لها عما ارتكبته بحقه من الاثم ، ويبادر بها في الحال بطرسبرج الى فرنسا او ايطاليا او الى بعض مدن الشرق ..

غير انه أحجم فجأة عن هذا الفكر وعاد الى مكتبه واخذ يحرق لفافة بعد اخرى حتى ملأ ارض الغرفة ببقايا اللفائف ، ولم يقر له قرار ، ولم ترتح افكاره الى الخطة المثلى التي يجب ان ينتهجها ... وخطر له وهو في تلك الحالة من التهيج ما عرضه بكلارستون عليه من اغتيال خصمه او ابعاده من طريقه واخفاء اثره ، فرأى ان ذلك افضل حل لمسألته وأقرب وسيلة للخروج من مأزقه ، فعزم على ان يجتمع ببكارستون في الغد ويفاوضه في هذا الامر . وكأنه ارتاح الى هذا الخاطر فتنفس طويلاً وقال في نفسه : ليطلب مني بكارستون ما يشاء من المال في مقابل ذلك أدفعه اليه بكل طيبة خاطر ، على ان يقوم هو بإبعاد هذا اللورد من طريقي بكل وسيلة يراها ، ولا شك حينئذٍ في ان صفقتي ستكون الرابحة ، ولا يبقى لمود ما يشغل قلبها عني ...

***

وفي اليوم التالي اجتمع راسولوف ببكارستون واتفق واياه على ان يقوم بكلارستون باخفاء اثر اللورد كراوتن ، ويدفع راسولوف في مقابل ذلك خمسين الف ريال . وقد وقع راسولوف حوالة بهذه القيمة لرئيس الشحنة وسأله الكف عن مراقبة مود اذ لم يبق حاجة الى ذلك

ولما عاد راسولوف الى منزله ، وكان قد سرّي عنه بعض اضطرابه ، استقبلته زوجته بالترحاب وقد هشّت له وبشّت وبالغت في ملاطفته وهي تقبله وتضمه الى صدرها . ثم جلست واياه الى مائدة الطعام وهو ينقاد اليها كعادته في ساعات رضاها . وقد دار بينهما الحديث

فقالت له — يظهر انك لا تزال مغتاظاً ايها الحبيب

فقال — ولكن غيظي لا يلبث ان يتبدد بحال اجتماعي بك ايتها العزيزة مهما كان هذا الغيظ شديداً ومهما كانت اسبابه

فدمعت عينا مود ونظرت الى زوجها نظرة الولهان وقالت — لا تغتظ ولا تذكر ما اسأت به اليك وانا في ساعة التهيج والانفعال . وكن لي زوجاً محباً واباً شفيقاً وصديقاً مخلصاً في آن واحد

وكان راسولوف حين رأى دموعها قد نسي ما كانت تجيش به نفسه فأقبل عليها وقال — أراكِ مضطربة يا عزيزتي ! فهل من سبب غير الذي اشرتِ اليه لهذا الاضطراب ؟

قالت — نعم .. نعم .. فانا قلقة خائفة مذعورة ..

فجحظت عينا راسولوف وقال — قولي لي بربك ماذا جرى وثقي بمودتي واخلاصي

قالت — لا يكفي هذا

قال — وماذا تريدين ؟ قولي ! أفصحي عما تريدين

فتنهدت مود ، وعادت عيناها فاغرورقتا بالدموع وقالت — انت زوجي وحبيبي وانا امرأتك . وستبقى حياتي مرتبطة بحياتك الى ان يفرق بيننا هادم اللذات ومفرق الجماعات

— صدقت

— ولذلك فمن اهم ما يجب على كل منا للآخر ان يكون مخلصاً في السر والعلانية ، وبذلك فقط تكون حياتنا خالية من كل شائبة ، وبركة لنا ولاولادنا

— وانا من هذا الرأي ايتها المفداة

— اذاً لم يبق لي الآن آكاشفك سر أقلقني ولا بد من ان أفضي به اليك ، ولكن بعد ان تعاهدني على قضاء ما أطلبه منك في الحال

— ولكن هل في استطاعتي ان اعاهدك على شيء أجهله ؟ نعم اني أعدك ان أقضي لك كل طلب بشرط ان يكون في طاقتي قضاؤه

— وانا لا أطلب منك ولا أقترح عليك الا ما هو في امكانك وتحت ولايتك . فأصغ اليّ الى النهاية ولا

تقاطعني بشيء

قالت ذلك واضطربت وارتعشت كأنها تريد ان تقول سراً هائلاً له اشد وقع في نفسها · وكان راسولوف يتفرّس فيها وقد سحره حديثها · وأدركت مود ما جال في نفسه فقالت — اعلم ايها العزيز اني قبل ان قدمتُ الى روشيا وتعرفتُ بك كنتُ أهوى رجلاً غيرك وكان الحب متبادلاً بيننا . غير ان علاقتي بذلك الرجل لم تطل الاّ الى حين قصير ، ثم افترقنا ، وجئتُ انا الى روسيا وصرتُ اليك ، وكنتُ أزعم اني لم أعد أجتمع بذلك الرجل · ولستُ أرى حاجةً الى ذكر اسمه اذ لا فائدة من ذلك · وانما اقول لك اني قابلته فجأةً هنا في بطرسبرج بينما كنتُ في بعض نزهاتي

قال — ومتى كان ذلك ؟

قالت — قلتُ لك ان لا تقاطعني ولا تسألني شيئاً الاّ بعد ان أفرغ من الحديث كله

قال — لك ذلك فقولي ما شئتِ

قالت — واني أعترف لك بان هذه المقابلة كان لها اشدّ تأثير في نفسي ونفسه · وصرنا نقابل بعد ذلك بعضنا بعضاً كل يوم بالرغم من يقيني بان ذلك مخالف كل المخالفة لسنّة الآداب الزوجية ·· وهكذا عدتُ فوقعتُ في اشراك هذا الرجل · واذا لم تتداركني انت في الحال وتنقذني منه انتهى بي الامر الى مكروه وعاد عليّ بالوبال والهلاك ···

قالت ذلك وشرقت بدموعها وهي تتلوّى وتضطرب · ثم تجلّدت واستثلت قائلةً — وليس لي بعد الذي جرى الاّ ان أسألك بل أتوسل اليك ان نغادر هذه المدينة في الحال ·· أنقذني ·· خلصني من هذا العذاب ·· أخرج بي الى حيث تريد ·· الى ايطاليا او فرنسا او سويسرا ·· او الى اقصى الارض ·· غداً خذني من هنا اذا كنت تحبني وتهواني ·· أبعدني عنه او اطردني من بيتك لا ذهب اليه ، ولا يكون في عملي حينئذٍ ما يبكّتني ضميري عليه

ولم يبق لدى راسولوف شك في ان مود انما تتكلم عن اللورد كراوتن · وقد عظمت امانتها في عينيه وأدرك سبب قلقها واضطرابها فقال — كل هذا حسن ايتها العزيزة · غير ان سفرنا في مثل هذه السرعة لا يمكن ان يكون · اذ لا بدّ لي من الحصول على الاجازة اولاً بعد ان أعهد في ادارة اعمال اللجنة الى مَن يستطيع القيام بها عني بالوكالة في مدة غيابي · وهذا يقتضي اسبوعاً على الاقلّ

فأجفلت مود وقالت — ولكن لا سبيل الى التأجيل · فدعني اسافر وحدي ثم تتبعني انت بعد ان تكون قد انجزت اعمالك ·· نعم نعم فلا بدّ من السفر ·· الان ·· او غداً ·· لاني لا استطيع ان املك نفسي ·· وقد ينقضّ « هو » عليّ انقضاض الباشق فيختطفني وينتهي كل امر ·· وانا انما اريد ان أبقى لك ·· ولا سبيل الى ذلك الاّ بالهرب من هنا

فأطرق راسولوف قليلاً ثم قال — حسن ·· سافري غداً في قطار المساء الى نيس في ايطاليا ·· وسأوافيك انا اليها بعد اسبوع

فوثبت مود من مكانها الى زوجها تقبله وتبكي من شدة الفرح وتقول — لله انت ما أكرمك وما أطيب قلبك ايها الحبيب

ونهضت بعد ذلك الى مخدعها واخذت في تجهيز لوازم السفر · وخرج راسولوف يريد مقابلة بعض زملائه الوزراء · لتدبير امر الاجازة لمدة شهرين « بعلّة المرض » وتسليم ادارة اعمال اللجنة الى وكيل ينوب عنه · وقد أعدّ حوالةً لزوجته بمبلغ عشرة الآف ريال على بعض مصارف ايطاليا لنفقاتها الى ان يحضر

وفي اليوم التالي سافرت مود · وأقام راسولوف ينتظر اخبارها البرقية ويجهز نفسه للسفر في اثرها · وكانت قد وعدت زوجها ان تطمئنه بوصولها اولاً الى ڤينا ثم الى نيس · وقد ارسلت اليه برسالة برقية من ڤينا ولكنها لم ترسل بشيء من نيس · ومضى على ذلك اليوم الاول والثاني والثالث من سفرها وراسولوف على أحرّ من الجمر

وبينا كان في احد الايام جالساً في مكتبه يطالع بعض الصحف وقع نظره على هذا الخبر :

« اختفاء غريب ··· خرج اللورد كراوتن الانكليزي

منذ ثلاثة ايام من منزله (ورقم المنزل ٢٨١) الساعة الثانية بعد الظهر على ان يعود بعد ساعة كما قال لخدمه ، ولكنه لم يعد لا في ذلك النهار ولا في الايام التالية ، وقد اختفى ولم يوقف له على اثر ، والحكومة جادّة في البحث عنه ٠٠٠»

قرأ راسولوف هذا الخبر ولم يبقَ لديه شك في ان بكلرستون قد قام بوعده واغتال اللورد العاشق . فذُعر وارتجف شديداً . ولكنه لم يلبث ان ملك روعه بعد ذلك وشعر بان جبلاً أُزيح عنه ولم يبقَ ما يحول بينه و بين مود ، فهي له الان بجملتها وقد قضي الامر

ومضى اليوم الرابع والخامس ثم السادس والسابع بعد ذلك وراسولوف لا يعلم شيئاً عن زوجته . وكان قد حصل على الاجازة ولكنه عزم ان لا يبرح بطرسبرج الاَّ بعد ان تصله اخبار مود . ثم غير فكره وصمم عَلَى السفر في الحال وهو يخشى ان يكون قد حدث لمود ما منعها من الكتابة

وكان راسولوف يعرف اللغة الانكليزية و يرتاح الى مطالعة صحفها . واتفق انه اخذ العدد الاخير من جريدة التيمس يوم عزم العزم النهائي عَلَى السفر فقرأ في الجريدة ما يأتي :

« ان شركة المعادن في نيو يورك قد حصلت في هذه المدة على رسوم مناجم جديدة كثيرة غنية بالذهب والفضة والنحاس وغيرها من المعادن الثمينة في أوسع مملكة من ممالك اوربا ، وتقدَّمت الى ابتياعها واستخراجها لحسابها بلا منازع . وقد فاز وكلاء هذه الشركة بابتياع تلك الكنوز الغنية جدًّا بأرخص الاثمان وأفضل الشروط . وقد جرى كل ذلك بفضل تدابير رئيس الشحنة الاميركية المشهور المستر جوي بكلرستون ودهاء عشيقته المس مود . فقد ظفرت هذه الحسناء الداهية بجميع الرسوم والخرائط والتقارير السرية المطوَّلة لتلك المناجم بمهارة غريبة ليس لواحدة من بنات جنسها مجاراتها فيها . لانها دخلت اولاً الى منزل مدير اللجنة المعيَّنة لدرس تلك المناجم كوصيفة لابنته . وكان المدير أيِّماً فلم تلبث ان استولت على قلبه وأصبحت زوجة له ولكن بالاسم فقط . وأخذت تعامله بالجفاء تارةً وباللطف واللين تارةً اخرى وتموّه عليه باساليب دهائها وهو يزداد هياماً بها ، الى ان صار لها عليه السلطة المطلقة واصبحت حياته كلها تحت تصرفها . وكانت في اثناء ذلك تعمل عملها فتنسخ ما شاءت من الرسوم والخرائط والتقارير وتبعث بها شيئاً فشيئاً الى بكلرستون وهو يبعث بها الى وكلاء الشركة الى ان تمَّ لهم جميعاً ما ارادوا . والغريب في هذه الحادثة ان المستر بكلرستون كان له في عاصمة المملكة ذات المناجم اسمان وصفتان كما كان له منزلان يعيش في احدها باسم جوي بكلرستون وهو بهيئة شيخ هرم وفي الآخر باسم اللورد كراوتن وهو بهيئته الطبيعية الجميلة . وتظاهرت المس مود بحبها لكراوتن وراح مدير اللجنة المسكين يسأل بكلرستون ان يكشف له سر زوجته و يبحث عن عشيقها ، و يبذل لذلك ما لا يحصى من الاموال . . وانتهى هذا التمثيل اخيراً بسفر المس مود مع رفيقها المستر جوي بكلرستون (او اللورد كراوتن كما دعا نفسه) في قطار واحد . ثم واصلا سفرهما حتى خرجا من اوربا وركبا باخرةً الى اميركا وهما يسخران «بمدير اللجنة» و يضحكان من سذاجته وجهله . . . وكان بكلرستون قد تعقب في تلك المملكة آثار نفرٍ من الجواسيس السياسيين واكتشف اسرار سياسية اخرى لا تقلُّ اهميةً عن اكتشافه مسألة المناجم ورفع بكل ذلك تقاريره المطوَّلة الى حكومته ونال منها أسنى المكافأة . . . »

* * *

وليس للقلم ان يصف ما حلَّ بالوزير راسولوف عند اطلاعه على كل ما ذُكر . فلبث حيناً جامداً كالصنم وقد تشنَّجت اعصابهُ ، ثم سقط عن كرسيهِ الى الارض لا يعي شيئاً . وما أفاق الا وهو في حالة اختلال عظيم، فنُقل الى المستشفى ولم يُعلم عنه شيء بعد ذلك

الخليلة الخائنة — من قصيدة للطبيب الذكر نقولا رزق الله

تحجبي وبعكِ عن ناظري ... والله ما حبُّك في خاطري
علَّمتني كيف تميتُ الهوى ... خيانةُ الفاسقِ والغادرِ
كنتِ ولا أُنكرُ فتَّانةً ... وكان قلبي ريشةَ الطائرِ
كنتُ أرى الظاهرَ لا غيرهُ ... والمرءُ قد يُخدعُ بالظاهرِ

خواطر

ذكرى

تذكرَ طيب العيش في سالف الدهر ... فقاضت مآقيه كنهمر القطر
لياليَ إذ يمسي ويُصبح لاهياً ... بوصلِ حبيب لا يروِّع بالهجرِ
غرامٌ بلا عذلٍ وحبٌّ بلا عنا ... ووعدٌ بلا مطلٍ وودٌّ بلا غدر
زمانُ ملذاتٍ وعهد صبابةٍ ... وأوقات لهوٍ حبذا ذاك من عصر
خلونَ وخلّفنَ الكآبة والأسى ... وكامن أشجانٍ تهيج مع الذكر

يوم لهو

وَوَادي الندى لا غبّهُ القطرُ والندى ... فأيامنا في دوحه غررُ العمرِ
فكم يوم أُنسٍ فيه بددتُ شمله ... بعقدٍ من الخلان منتظم الدرِّ
فكنا به نلهو خلال ظلاله ... ونرتع في وديان وُدٍّ لنا خضر
ملبّين في اللذاتِ والقصف دعوةً ... دعتنا اليها الساجعاتُ من الطير
إلى أن زففنا الشمس للبدر فانجلت ... عروساً تهادَى في غلائلها الصفر

ليلة وصل

وكم ليلةٍ قمراءَ غاب عذولُها ... وأغمض فيها عينَهُ حادثُ الدهرِ
سقتني بها ذاتُ الملاحة والسنا ... مدامةَ وصلٍ اسكرتني بلا خمر
وقد باتت الدنيا سروراً ترشّنا ... بقطر الندى والروض في حلل البشر
ومن فوقنا بدر السماء يسيل من ... أشعته ذوبُ اللجين عَلَى البحرِ
كأنيَ في الفردوس ما بين حوره ... وما من رقيبٍ غيرُ خدنٍ من الطهر
أَبُثُّ لها فرط الهوى وتبثني ... فما أعذبَ النجوى وأدعى إلى السكرِ
ظللنا إلى أَن أَطبق النجم جفنه ... واغرت بنا الدهرَ البلابلُ والقمري

موقف وداع

وليلةَ أزمعنا الرحيلَ وأقبلت ... تودعني هندٌ وأدمعها تجري
تعلّق كلٌّ من جوىً وصبابةٍ ... بصاحبه حتى دنا مطلع الفجر

فيا لك من وجدٍ شديدٍ علوقُهُ … ويا لك من مرأى يؤثر في الصخر
تُرقرقُ في الأجفان دمعاً كأنه … سقيط الندى يبدو على ناضر الزهر
وتُصعِدُ حيناً زفرةً تلوَ زفرةٍ … تثور لها في أضلعي شُعَلُ الجمر
وأمسحُ ما تذريه نُجلُ عيونها … بيمناي واليُسرى على خافق الصدر
أحاول تسكين الفؤاد ولم يكن … ليسكنَ بل يزداد شرًّا على شرّ
وقالت وما كادت تُبين من البكا … أتتركني للحزن بعدك والضرّ؟
فقلت لها : لا تجزعي هندُ إنه … هو الدهر قِدماً يُتبع الحلوَ بالمرّ
وإنْ هي إلاّ مدةٌ وستنقضي … وإنّ جميل الصبر أجمل بالحرّ
أُصبّرها والله يعلم أنني … عدائذٍ أصبحتُ خلواً من الصبر
أكاد لوشك البين أقضي وانما … حذاراً عليها بتُّ أكتمها أمري

حنين قلب

لعمرك لم يستهوني حسن غادةٍ … فليس فؤادي صيدَ طرفٍ ولا ثغرِ
ولم أبكِ من ذِكرى حبيبٍ ومنزلٍ … فأضيعُ شيءٍ دمعةٌ في الهوى تجري
وما هي أنّات امرىءٍ هام قلبه … بهندٍ فأوهي صبرَهُ طارىءُ الهجر
ولكنها أوتارُ قلبٍ تقطّعت … فكان صداها رنةَ الحزن في الشعر
إلى غير أيام التصابي حنينُهُ … ومن نار غير الحب يلذع بالجمر
يحنُّ إلى مجدٍ قديمٍ مؤثَّلٍ … طوته الليالي منذ حينٍ من الدهر
بنى ركنَهُ قحطانُ والغرُّ من بني … أميةَ والعباس فخرًا على فخر
وأهمله أبناؤهم فهوَوا الى الـ … حضيض وباءوا بالهوان وبالخسر!
ولي نفس حرٍّ لا تقيم على أذى … معوّدةٌ أن لا تنام على وتر
لها غاية تسمو اليها بطرفها … وتركبُ فيها كل مستخشَنٍ وعر
تدافعها الأيام عنها بجهدها … ولكنها لا تنثني طيلة العمر
ومن طلب العلياء وطّن نفسه … على رؤية الأهوال في البر والبحر
ومن كان ذا نفسٍ كنفسي نزوعها … إلى المجد لم يحفل ببيض ولا سمر

فإما حياة لا يكدّر صفوَها
هوانٌ وخسفٌ أو مجاورةُ القبر
فان كانت الأُولى فمثلي ينالها
وإلا فإنّ الموت أجدر بالحرّ !

ابن فلسطين

سلطان مضحك

(لنقولا افندي شكري)

تعقد المحالفات ، وتبرم المعاهدات ، ويتنازل الملوك عن ممالكهم ، وتثل العروش ، وتدخل الشعوب الضعيفة الخاملة في جوف الشعوب العظيمة الرفيعة الشان ، ولا نعرف عنها الا شيئاً يسيراً تأتي الينا به الانباء البرقية ، ويقتطمه الصحفيون ويستنزلونه من صنائع اهل الشأن ، والمقربين الى من بيدهم زمام تلك الامور . وكذلك مضى نصف احداث التاريخ اسطراً ضئيلة في الكتب ، لو اطلع عليها كاتب اليوميات في السماء لنسخ اكثرها . وهكذا مشي التاريخ الانساني مقتضباً موجزاً من ناحية مكذوباً من الناحية الاخري

على انه قد يهدي الله اناساً عندهم علم ما خفي على الجماهير ، فيأبون الا ان يكشفوا هذه الاسرار ويحدثوا الانسانية بغرائب ما انتهى اليهم أو وقع على ايديهم .

ومن هذا ما قرأناه في جريدة « پيام صباح » التركية منقولاً عن مجلة الاستراند الانكليزية ، بقلم المستر والتر هاريس من التفاصيل الغريبة والقصص المدهشة ، والاسرار التي تكاد تلوح ضرباً من المجون وان كانت لا تزال حقائق لا يشهد بها اثر للكذب او الاختلاق . وهذه الاسرار تتعلق بما دار بين مولاي الحفيظ سلطان مراكش السابق وبين الحكومة الفرنسية عند تنازله عن العرش ودخول الدولة المراكشية في كنف جمهورية فرنسا وحمايتها وكان الكاتب المستر ولتر هاريس في جملة الحضور ، وعلى يده وقع التعهد بين السلطان « مولاي الحفيظ » ومندوب الجمهورية ، وقد وصف جملة من اخلاق الحفيظ وطرفاً من المخازي التي ظهر فيها الرجل ضئيل الروح ساقط الهمة ، مرذول السيرة

ونحن نعرب للقراء شيئاً من هذا المقال الغريب تفكهة لهم وكشفاً لحقائق مُرّة يجب ان نعلمها قبل سوانا

قال المستر هاريس : — بعد ان بسط العداء الذي كان مستحكماً بين عبد العزيز والحفيظ وتولي الاخير زمام الحكم ، وانشقاق القبائل عليه : — لم يكن مولاي الحفيظ بالرجل الخليق بان يرد الحياة الى مراكش المحتضرة ، فاتخذ من الحكم ضروباً من القسوة والوحشية ، فخرجت عليه القبائل حتى حاصرته في فاس في اوائل عام ١٩١٢ فاستنجد بالفرنسيين وكانوا قد نزلوا ببلدة نسبلا كسكا على

شاطىء المحيط الاطلنطي فلم يلبث ان وصلت اليه الكتائب ، ففضت جموع المحاصرين عن اسوار العاصمة ولم تكد تمضي بضعة اسابيع حتى تم التوقيع على معاهدة الحماية الفرنسية ، ولكن حدث بعدها مجزرة قتل فيها جمع كثير من الجنود الفرنسية وبذلك اضحى مركز الحفيظ حرجاً ، بين فرنسا وشعبه ، فأجمع على اعتزال الملك

وعليه انتقل البلاط الى رباط ، وهناك كان آخر العهد باستقلال مراكش ، وهناك بدا الحفيظ مطماعاً جشعاً

وقبل ان يرحل عن فاس الى رباط ، دبر الحيلة لكي يتزود بالثروة ومطالب الترف ، فنصح لنساء الاسرة المالكة وعقائل قصره ، وهن سرب كبير ، لا يقل عددهن عن فرقة من الجيوش فيهن ازواج السلاطين السابقين وكريماتهن وذوات ارحامهن وقريبات الحفيظ ونساء عشيرته ، بان يرافقنه جميعاً الى رباط ، وأصدر اليهن التعليمات القاضية بنقل امتعتهن ، واما الجواهر واللآلئ والاعلاق والنفائس فطلب اليهن ان يضعنها في صناديق صغيرة ، ويضعن الثياب والمتاع الآخر القليل القيمة في جعب كبيرة وظرود ، فصدعن جميعاً بما أمر . ولكن عندما آن اوان رحيل السلطان ترك وراءه السيدات والجعب وسافر بالصناديق الصغار

وهذه الجواهر الآن في اوربا ولا ريب ، لانها لم تلبث ان انتقلت الى التجار ، ولعلها تزين اليوم صدوراً واعناقاً ومعاصم ونحوراً في قصور الغرب ومغانيه

وقد قضى الاسابيع الاخيرة من حكمه في نزاع مستمر بينه وبين المفوضين من الفرنسيين ، وكان لا يزال سلطاناً ، ولذلك لا يزال خطراً ، وأمر خلفه لم يكن قد تقرر بعد ، وبذلك كان لا يزال على مائدة هذا اللعب بالسلطنة أوراق طيبة ، وقد استطاع ان يظفر منها في اللعب بالفائدة ، حتى انه عندما استتب كل شيء وارسلت كتب تولية اخيه الاصغر مولاي يوسف الى داخلية البلاد ، عاد مولاي الحفيظ فغير رأيه وتنازل عن عهده . فلما سئل عن ذلك قال انه رأى ان لا يعتزل ويترك مملكته ، فوقعت فرنسا في ضيق من امرها ، بعد ان اعلنت تولية يوسف ، ولا يزال السلطان الاول باقياً لا يريد اعتزالاً . ثم عاد فصرح بان في الامكان مفاوضته ثانياً في امر الاعتزال لعله يستطيع ان يثوب الى عزمه الاول ، وكل ذلك لكي يتناول ٤٠ الف ليرة اخرى ، وقد دفعت اليه بصك على احد المصارف ، عندما أبحر من رباط شاخصاً الى فرنسا زيارةً وتنزهاً وتجوالاً ، وفي مقابل ذلك سلم المعتمد الفرنسي اوراق اعتزاله . ولعل أغرب ما في تاريخ اعتزال الملوك وأفكه ما في هذه القصة التي نبسطها للقراء الآن وأبعث على الضحك والدهشة الصورة التي تمثل الحفيظ والمعتمد وقد وقفا ازاء بعضهما البعض ، يحمل كلٌّ منهما في يده صورة التعهد الذي جرى بينهما

ولا يظهر منه الا طرفاً ، وهو يخشى ان يدفع به الى صاحبه فيفلت به دون ان يسلمه العهد الذي بيده

وفي مساء اليوم الذي تلاه التوقيع عَلَى التنازل أعدم الحفيظ جميع الشعائر المقدسة للسلطنة لانه علم انه آخر سلطان نعم بالاستقلال في الدولة المراكشية، فعزم عَلَى ان يقضي بانقضاء عهد الاستقلال عَلَى هذه الشارات التاريخية الخالدة . فأحرق المظلة الحمراء التي كان يستظل بها في الرسميات والحفلات، وحطم المحفة الرسمية وجعلها للنيران طعاماً ، ثم الصناديق والمحافظ التي كانت فيها المصاحف والكتب الدينية، ولكنه لم يستطع ان يحرق الكتب، بل أبقى عليها، وأخذ معه جواهر النساء ولآلئهن . وعاد بعد زيارته فرنسا الى طنجه، وكان قد وصل اليها اذ ذاك اسرته وحاشيته وهم يبلغون نحواً من مائة وستين شخصاً ، فدفعت اليه قلعة طنجة المسماة بالقصبة لتكون مقامه في مثواه .

ولم يلبث في طنجه اياماً حتى بدأت المناقشة في شروط اعتزاله، اذ كان قد كتب التنازل ولم توضع الشروط . وهنا احتدم الخلاف ، واشتد الشجار بين الفريقين ، ولم يكن الحفيظ يأسف عَلَى شيء من نعمة الاستقلال اسفه على انه لم يضع شروطاً احب اليه و يظفر ببنود في العهد أصلح لثروته ، ولكنه كان لا يزال يطمع في الحصول على مال آخر ، وثروة اكبر

وفي ذلك الحين طلب الفريقان الى كاتب هذه السطور ان يتداخل في الامر ، ليصلح ذات البين ، اذ كان قد وقع بين السلطان المخلوع وبين المفوضين الفرنسيين في الصلح مشهد رائع هائل ، اذ اخذ الحفيظ وشتم ، وتكلم بلهجة قاسية ليست في شيء من لهجات الملوك، حتى اصبح الاتفاق امراً مستحيلاً

ففي ذاتِ يوم، والوقت صباح، زارني موظف افرنسي وسألني ان اتداخل بين الفريقين بحجة ان لي دالة واثراً عَلَى السلطان المخلوع . ثم لم يكد ينصرف حتى حضر الحفيظ نفسه الى داري وكان في أشد حالات الانفعال والغضب . فجلس فوق متكأ وعيناه مغعمتان بالدموع وانطلق يشرح لي مظالمه وشكواه حقاً وباطلاً ، واضاف عَلَى ذلك قائلاً : « وانت وحدك الذي له النفوذ التام على هؤلاء « الملاعين» فارجو منك ان تتداخل في المفاوضات . فلم يسعني اذ ذاك الا القبول

وابتدأت المفاوضات بعد ذلك بساعة ، فظل الحفيظ في داري طول ذلك اليوم ، ورفض ان يأكل او يشرب

وفي غيابي عند المفوضين انصرف الحفيظ ، ولكنه لم ينصرف حتى اخذ معه صفوة المنتخبات العربية الخطية التي كنت احفظها في مكتبتي ، ولم ارها منذ ذلك الحين ، ولكن السلطان ارسل الي بعدها هدية في مساء ذلك اليوم، لعلها مقابل ما اخذه من كتبي ، وهذه الهدية سيف مرصع بالذهب

والمسألة الهامة من هذه الشروط هي ديونه وقد ثار حولها الخلاف اياماً ، اذ كان الاتفاق في اول الامر عَلَى ان جميع الديون التي صرفت في شؤون

المملكة يجب ان تعد ديوناً حكومية وعَلَى فرنسا ان تدفعها الى اربابها، واما الديون الخصوصية فعلى السلطان المخلوع ان يدفعها من امواله الخاصة. ولكن كان من الصعب التمييز بين هذه الديون وتلك لان سلطان مراكش كان ملكاً مستقلاً مطلق التصرف، واموال المملكة هي امواله، وليس ثمت فارق بين دَين خصوصي ودَين عمومي، بل كانت العادة المتبعة في الصرف على شؤون الحكومة والبلاط السلطاني ان تكتب بها صكوك عَلَى الكمارك

فمن بين الديون التي اشتد فيها امر الخلاف ثمن سلالم من الرخام البديع كان السلطان قد امر بصنعها لقصره بفاس في ايطاليا. فاحتج المفوضون بان هذه السلالم ليست الا مطلباً من مطالب السلطان ولهذا يقوم هو بدفع ثمنها. ولكن السلطان أصرَّ عَلَى ان القصر هو ملك الحكومة وان جميع ما يطرأ عليه من الاصلاح يعود نفعه اليها، وقال ان خلفه هو الخليق بان يدفع ثمن هذه السلالم لانه سينتفع بها، فاذعنت السلطة المحتلة الى عدل هذه الحجة، ودفعت الثمن. ولكن الموضوع لم ينته بعد، فان الحفيظ بعد بضعة اشهر من ذلك العهد اذ كان يبرم اذ ذاك عقداً لبناء قصره الجديد بطنجة وضع في صورة البناء رسماً لسلم من الرخام، فاجترأتُ عَلَى ان اسأله اذا كانت هي السلالم التي كان عليها النزاع من قبل، فكان جواب الحفيظ: أجل هي بعينها، انها لم تكن قد خرجت من ايطاليا اذ ذاك فارسلتُ نبأً برقياً الى المصنع الذي كان يُعدّها بان يبعث بها في الحال الي لا الى فاس، وكان ذلك!

ويتلو هذا المطلب مطلب آخر وهو ثمن بضعة أمتار من القماش الاحمر غالية الثمن باهظة القيمة، فلم يسع المفوضين الا ان يضعوا ثمنها في قائمة الديون الخصوصية، ولكن السلطان احتج قائلاً ان هذا القماش اشتري لاجل شوءون المملكة، لتصنع منه سراويل لجواري المطبخ السلطاني، والمطبخ السلطاني يحوي مئات منهن لاجل اعداد طعام الملك. فرفضت السلطة المحتلة قبول هذا الدَّين. فاخرج السلطان حجة اثرية ليدل بها على ان جواري المطبخ هن من خدم الحكومة وانهن ينتقلن مع القصر من حوزة سلطان الى سلطان، فأذعنت السلطة الى هذا المبدأ، ولكنها أصرت عَلَى رفض الدين بحجة ان هؤلاء الجواري لا يطلبنَ مثل هذا القماش الثمين الباهظ القيمة لاثوابهن الداخلية، وان قماشاً من القطن كان يغني عن هذا الترف و يفي بالغرض، فلم يكن من السلطان المخلوع الا ان اجابهم جواباً مسكتاً بقولهِ: يمكن ان يكون ذلك في اوربا ولعل جواري المطبخ الملكي هناك يلبسن سراويل من القطن، ولكننا في مراكش نعظم مركزهن!! فلم يحر المفوضون جواباً ودُفع الثمن

وأصعب المشكلات التي عرضت عند تصفية الديون مسألة طبيب اسنان السلطان المخلوع، وهو

اسباني الجنس، لانها كادت تحدث مشكلة دولية.
ولا يذهب بك الظن الى ان الدين الذي كان يُطالَب به هذا الطبيب كان خاصاً بصناعته، ولكن كان ذلك وفاء لثمن اسد اشتراه للسلطان من المانيا . وقد كان تعيينه في اوائل عهد السلطان الحفيظ وبالحكم بماهية منتظمة ، ثم اصبح دائماً في بلاط جلالته ، وظل مدة يصلح من اسنان رجال البلاط ويداوي افواه سيدات القصر حتى اضحت نواجذهن تلمع بالاسنان الذهبية . فلما انتهى من هذه المهمة ظل بلا عمل

فأوفده الحفيظ الى همبورغ ليشتري حيوانات له يحفظها في حدائقه ، ولكن الطبيب أخطأ اذ تأخر، لأنه حين عاد الى فاس ، كان شوق السلطان المخلوع الى الاسد قد انطفأ ورأى ان لا حاجة به الى اقتناء كثير من الحيوانات لانها تستلزم مصاريف باهظة

وقد زاد الأمر اشكالاً وحال دون فضه ان الحفيظ كان قد رأى من قبل عند الطبيب كرسيه المهتز فطلب اليه ان يصنع له عرشاً هزازاً عَلَى قواعده الآلية ودفع اليه الثمن ، ولكن العرش لم يتم ولم يقدم للحفيظ ، ولهذا كان هو الآخر يدين الطبيب كما دانه ، فاحتج السلطان بانه قد دفع ولا شك ثمن الاسد واذا لم يكن قد دفع ، فهو ولا ريب دين عمومي ، ولم يكن عليه مسؤولاً ، وطلب تسليم العرش الهزاز اليه . وفي ذلك الوقت كان قد عقد خدمة الطبيب قد انتهى فاعلنه الحفيظ بان ليس في النية تجديده ، ولكن كان الطبيب لايزال يستطيع المناوأة والعناد ، اذ كان السلطان قد أسكنه مغنى جميلاً في املاكه دون أجر ، فرفض ترك الدار وأعانته السلطة الاسبانية عَلَى امره ، فلما بعث السلطان بطائفة من العبيد لطرده من البيت وجدوا الدار محاصرة بالمتاريس ، وألفوا الرصاص ينهال عليهم من كل مكان

وهنا استفحل الامر ، وعظم الخطب ، وكاد يصل الى مشكلة دولية

ولكن لم تلبث توسلاتي ومفاوضاتي ان ذهبت بثورة العاصفة ، ورضي السلطان بان يمثل الطبيب بين يديه للمهادنة والمفاوضة . وكان السلطان جالساً في ديوانه ، ممعناً في قراءة كتاب عندما دخل الطبيب ، فأدى السلام وحياه بأدب ولكن بشيء من التكلف والمغالبة ، ولعل ذلك لم يرض جلالته ، فلم يبتسم له ، كما كان اتفاقي معه ، ولم يجبه عَلى تحيته بل استرسل في قراءته بصوت مترنم مجود متظاهراً بعدم الالتفات

وساد السكون قليلاً ولكنه لم يلبث ان تبدد اذ قال احد الحاشية : « مولاي الملك ها هو الطبيب قد حضر .. »

فلم يكن من السلطان الا ان قال ، دون ان يرفع عينيه عن الكتاب : هل احضر المقعد معه؟

ولم يكن هذا ما اتفقتُ عليه معه ، اذ طلبت

اليه من قبل ان لا يذكر كلمة عن الكراسي ولا عن الاسد بل كان الغرض من هذا اللقاء مفاوضة الطبيب في ترك البيت عَلى ان يأخذ مقداراً من المال

وقبل ان يتوسط احد في الحديث ، لم يكن من الطبيب الا ان صرخ قائلاً : « ادفع لي ثمن اسدي ! »

وعند ذلك اشتعلت نار الحديث ، وانطلق السلطان في غضبه ولعناته ، ولم البث ان رأيت الطبيب في ايدي الخدم والحاشية يتململ ويتلاكم ويتضارب ، وقد حملوه عَلى هذه الصورة الى خارج الحجرة ...

ممالك العرب قبل الاسلام

كانت ممالك العرب قبل الاسلام منقسمة الى دول كبيرة وممالك صغيرة ، فالدول الكبيرة ثلاث :

اولها اليمن ، وكان مقر ملوكها (صنعاء) واول من ملك منهم قحطان بن عابر ، وخلفه على ملك اليمن ثمانية وعشرون ملكاً ثم انتقل الملك منهم الى الدولة الثانية . واول من ملك منها (تُبَّع الاول) ابن الاقرن ، وخلفه عشرون ملكاً آخرهم (ذو جدَن الحميري) الذي تغلب عليه (ارباط) قائد جيش النجاشي ملك الحبشة سنة (٥٢٩م) واستولى على مملكته وضمها الى مملكة الحبشة . وكان ارباط المذكور يزدري بالضعفاء ويكلفهم ما لا يطيقون من المشاق فجزعوا لذلك وانضموا الى (أبرهة) احد رؤساء الجيش فأخذ بناصرهم وتحارب مع (ارباط) وقتله وقام بالامر بعده . وبعد موته ملك ابنه (يكسوم) ثم اخوه (مسروق) فاستخلصها منه (سيف بن ذي يزن) بمساعدة كسرى انوشروان . وبعد موته تغلب عليها كسرى ، وبقيت تحت سلطتهم الى سنة ٦٣٤ م حتى فتحت بالاسلام ، وكان العامل عليها حينئذٍ (باذنُ) الذي اسلم عَلى عهد النبي

الثانية المناذرة ملوك العراق ، وكان مقر ملكهم (الحيرة) وهي قريبة من الكوفة ، وكانوا عمّالاً للاكاسرة عَلى عرب العراق ، واول من ملك على العرب بارض الحيرة (مالك بن فهم) وينتهي نسبه الى قحطان (وكان ملكه في ايام ملوك الطوائف قبل الاكاسرة) ثم ملك بعده اخوه (عمرو بن فهم) ثم ابن اخيه جذيمة بن مالك بن فهم) ثم غيره الى تمام (الستة والعشرين) ملكاً ثم انتزعها خالد بن الوليد عقب الفتح الاسلامي من يد آخر ملوكها (المنذر) بن النعمان

الثالثة الغساسنة ملوك الشام ، وعددهم اثنان وثلاثون ملكاً وكانوا عمّالاً لقياصرة الروم عَلى عرب الشام ، واول ملوكهم (جفنة ابن عمرو بن ثعلبة) وآخرهم (جبَلَة بن الايهم) وقد أسلم في خلافة عمر بن الخطاب سنة (١٦ هـ) وفي هذه السنة خرج (عمر) الى الحج فحج جبلة معه فبينما جبلة طائف اذ وطئ رجلٌ من فزارة إزاره فلطمه جبلة فهشم انفه فأقبل الفزاري الى عمر وشكاه فأحضره

عمر وقال : أَفتدِ نفسك والاَّ امرته ان يلطمك· فقال جبلة : كيف ذلك وانا ملك وهو سوقة ؟ فقال عمر ان الاسلام جمعكما وسوَّى بين الملك والسوقة في الحد· فقال جبلة اتنصَّر· فقال عمر: ان تنصرت ضربت عنقك · فقال : أَنظرني ليلتي هذه · فأَنظره ، فلما جاء الليل سار جبلة بخيله ورجله لى الشام ، ثم سار الى القسطنطينية وتبعه خمسمائة رجل من قومه فتنصَّروا عن آخرهم وفرح هرقل ملك الروم بهم واكرمه

وهذه هي الدول الثلاث الكبرى في بلاد العرب · واما الممالك الصغيرة فكثيرة مثل كندة وغيرها وكذا الملوك المتفرقون مثل كليب ملك بني وائل وتغلب الذي قتله جساس بنُ مرَّة ومثل قيس بن زهير العبسي وغيرهم

فوائد منزلية وصحيَّة

* يقول الاوربيون ان الفاكهة ذهب في الفطور وفضة في الغداء ورصاص في العشاء ، يعنون انها تفيد كثيراً في الصباح وتثقل في المساء · اما فائدتها في الصباح فلا نزاع فيها · واما ما ينتج عنها من التعب في المساء فسببه أَكلها بعد ان تمتلئ المعدة من الطعام الغليظ · فلو اقتصر العشاء عَلَى القليل الخفيف من الطعام لكانت الفاكهة خير ما يضاف اليه

* الفواكه الناضجة سهلة الهضم جداً بشرط ان تؤكل وحدها ولا تؤكل فوق الشبع

* من العجب ان يوجد عند الناس خبز من القمح وحبوب كالفول والعدس وفاكهة طرية كالعنب والتين والموز والبرتقال ويابسة كالزبيب والتمر والتين اليابس وهم لا يكتفون بهذه الاطعمة ويستغنون عن اللحوم والمعاجين وكل الاطعمة الغالية الثمن المتعبة للمعدة

* العمل الشاق لا ينهك الجسم الاَّ اذا عملهُ الانسان عن اضطرار لا عن اختيار وعن كره لا عن رغبة · اما الذي يحب عملهُ ويرغب فيه فلا ضرر عليه منه مهما كان شاقًّا · وحبُّ العمل سرٌّ من اسرار حفظ الصحَّة وطلاقة الوجه وجمال المنظر

* إِستنشقِ الهواء النقي دواماً ما دمتَ تعمل لان الهواء النقي اكبر عماد للصحة ، وزد عَلَى ذلك انه يؤخذ مجاناً بلا ثمن ، لكنَّ كثيرين يغفلون هذه الحقيقة وينسون هذه المنحة العظمى

* عوّدي — ايتها الام — اولادكِ ان يخلعوا ثيابهم قبل النوم وينشروها عَلَى كرسي امام شباك مفتوح ويقلبوا جواربهم وينشروها على كرسي آخر حتى يحرّكها الهواء الليل كله فانه يزيل ما فيها من الغازات ويطهّرها عَلَى نوع ما

* الاكثار من الرياضة في الهواء لازم لحفظ الصحة والشباب والجمال
